

خسوف النرجس



أزلباض خديجة



خسوفُ النُّرِّجِسِ .

بقلم : خديجة أزلماض .

إهداء

"إلى أحلام.."

التي لم تكن مجرد صديقة، بل كانت البوصلة حين ضاعت الدروب،
واليد التي رمت بحبال النجاة حين ظننتُ أن الغرق قدري.

إلى مَنْ حمت "الشمس" التي بداخلي من الانكسار، وأرشدتني نحو
الضياء حين استوطننتي العتمة..

إليكِ يا رفيقة الروح، أهدي هذا العمل، اعترافاً بأن الصداقة
الحقيقية هي المعجزة التي ترمم ما حطمه الآخرون."

إلى تلك التي خُذعت بوهج الملائكة..
إلى التي تلملم شظاياها كل ليلة لتصنع منها امرأة لا تُكسر.
وإلى الذين اعتقدوا أنهم نهايتها... أنتم لم تكونوا سوى البداية.

لم تكن الخطيئة في الثقة، بل في أولئك الذين استعاروا وجوه الملائكة
ليسكنوا الجحيم الذي فينا.

مُقَدِّمَةُ الضِّيَاءِ المَجْرُوحِ

"في هذا العالم، لا ننهزم حين نفقد الأشياء، بل حين نصدق أننا لا نستحقها.

إن هذا الكتاب ليس مجرد سردٍ لحكاية امرأة تعثرت بظلمها، بل هو تشریحٌ لذاك الخيط الرفيع والقاتل الذي يفصل بين 'الحب' و'الاستحواذ'، وبين 'الستر' و'الاختناق'. لقد اعتدنا في أدبياتنا أن نمجد العطاء حتى لو كان على حساب الروح، ونقدس الصمت حتى لو كان قبراً للذات، لكننا نسينا أن أولى فرائض النبل هي الوفاء للجوهر الذي أودعه الله فينا قبل أن تلوثه أو هام الآخرين.

كتبْتُ هذه الفصول بمداد التجربة، لا لكي ألعن الظلام، بل لكي أعلم القارئ كيف يقرأ ملامح 'الملاك الزيف' حين يرتدي مسوح الثقافة، وكيف يميز بين من يمسك يدك ليرفعك نحو السماء، ومن يمسكها ليوهمك أن الأرض من دونك ستنتشق. إن 'شمس الضحى' ليست بطلّة ورقية، إنها صوت كل امرأة قيل لها إن ذكاءها 'لعنة'، وإن كمالها 'نقص'، وإن طهارتها رهينة بغفران رجلٍ لا يملك من الطهارة إلا ادعاءها.

إلى أولئك الذين كُسرت مرآيا نفوسهم، فأبصروا وجوههم مشوهة في
عيون العابرين:

هذا الكتاب هو دعوة لاستعادة تلك المرآيا، وصقلها بماء الحقيقة،
والاعتراف بأن الندوب ليست عاراً، بل هي أوسمةٌ نلناها في معركة
الوعي.

إنني أضع بين أيديكم حكاية 'الخشوف' الذي لا بد منه لندرك قيمة
الضياء. فلا تقرأوا هذه الكلمات بأعينكم، بل اقرأوها بصيرتكم التي
حاولوا إطفاءها. ففي نهاية كل نفق، لا تنتظرنا الشمس.. بل نكتشف
أننا نحن الشمس، إذا ما تجرأنا على الإشراق من جديد."

الفصل الأول: ارتعاشة المرأة

في الخامسة فجراً، لا يكون الصمت في مدينة "طنجة" مجرد غياب للأصوات، بل هو وحش نو أنفاس باردة يتحسس جدران الغرف الضيقة. استيقظت "شمس الضحى" على صوت ارتطام قطرة ماء في حوض الحمام، صوتٌ كان كافياً ليوقظ في ذهنها صدى خطواتٍ قديمة ظنت أنها وئدت تحت ركام السنين.

وقفت أمام المرأة. لم تكن تنظر إلى وجهها، بل كانت تفتش في عينيها عن تلك الفتاة التي كانت قبل "الحدث". كانت الملامح هي ذاتها، لكن البريق كان قد هجر المآقي، مخلفاً وراءه رماداً لآمالٍ احترقت في وضوح النهار. تحسست عنقها ببراحم ترتجف، هناك، حيث استقرت ذات يوم وعودٌ كاذبة كُتبت بمداد من سراب.

"لم أشف بعد"، همست للمرأة، فارتدّ صوتها مخنوقاً، مثقلاً بمرارة الخديعة. تذكرت ذلك الوجه؛ الوجه الذي بدا في البداية كملاذٍ أخير، كخلاصٍ منتظر وسط تيه الأيام. كلماته التي كانت تشبه "الخلاص" صارت الآن كسكاكين صدئة تنغرس في خاصرة ذاكرتها كلما حاولت النسيان. كيف يمكن لوجه ملائكي أن يخفي خلفه جحيماً بهذا الاتساع؟ وكيف للثقة، تلك الفضيلة البيضاء، أن تتحول إلى مقصلة تُهدر عليها براءة الروح؟

فتحت نافذتها لتستقبل رذاذ البحر المالح. كان الضباب يلف المدينة ككفن رمادي، يذكرها بحالها؛ امرأة تسير في ردهات الحياة بجسدٍ ناجٍ، لكنه نجاة تنزف بصمت. هي لا تركض من أحد، هي تركض من "صوت" يسكن حنجرتها، صوتٍ قال لها ذات خيبة: "من المستحيل أن تتجاوزيني".

أخرجت صندوقاً خشبياً صغيراً من درج مكتبها. لم تفتحه. كانت تكتفي بلمس سطحه الخشن، وكأنها تلمس جرحاً لم يندمل بعد. داخل هذا الصندوق تسكن بقايا "نهار" القديمة؛ رسائل لم تُرسل، وصورٌ مُزقت أطرافها، وخوفٌ نبتت له أنياب.

في تلك اللحظة، شعرت ببرودة غريبة في أطرافها، برودة لا علاقة لها بطقس طنجة المتقلب. كان برد "الخيانة". الخيانة التي تجعل المرأة تشعر بأن العالم كله غابة من الأقنعة، وأن كل يد تمتد للمساعدة ليست سوى فخٍ جديد.

نظرت إلى البعيد، حيث تداعب خيوط الفجر الأولى مآذن المدينة، وقالت بوعيدٍ صامت: "لن أسامح". لم تكن الكلمة موجهة لشخصٍ بعينه فحسب، بل كانت إعلاناً للحرب على الضعف الذي سكنها طويلاً. هي الآن في مرحلة "ما بعد الانكسار"، حيث لا مجال للغفران، بل فقط للمواجهة، مواجهة تلك الشياطين التي نهشت براءتها بلا رحمة.

تراجعت عن النافذة، وأمسكت بقلمها. لم يعد القلم أداة للكتابة، بل صار مشروطاً ستبدأ به عملية "الترميم" الكبرى.

الفصل الثاني: وثنُ الملائكة

كانت شمس الضحى تؤمن بأن الأرواح الراقية تُعرف من سيماها، وأن الكلمات العذبة ليست سوى انعكاس لصفاء السريرة. لم تكن تعلم حينها أن "إبليس" كان يوماً طاووس الملائكة، وأن أجمل الأزهار قد تخفي تحت بتلاتها سماً زعافاً.

تذكرت لقاءهما الأول؛ كان يرتدي ثوب "المنقذ"، ويتحدث بلغةٍ تشبه "الخلاص". كان صوته طمأنينةً زائفة، تسلت إلى حصونها المنيعه التي بنتها عبر سنوات من الحذر. "كيف سقطتُ؟" تساءلت بمرارة وهي تقلب صفحات مذكراتها القديمة، "كيف عبرتُ جسر الثقة وأنا أعلم أن تحته هاوية؟".

الخطيئة لم تكن في الحب، بل في "التقديس". لقد حولته في مخيلتها إلى "وثنٍ" من طهر، ورفضت أن ترى الشقوق التي كانت تتسع في تمثاله يوماً بعد يوم. كان يسلبها قطعاً من روحها بذكاءٍ مفرط، ينهش براءتها بلا رحمة وهو يتسم. كان "شيطاناً" يتقن دور الضحية، يغلف قسوته بأعذارٍ واهية، ويجعلها تشعر بأنها هي المخطئة دائماً، حتى حين كانت تنزف.

"أنتِ بدوني محضُ هباء"، كان صوته يتردد في أذنيها كفحيح الأفاعي. "من المستحيل أن تتجاوزيني". كلماتٌ كان يقصد بها تصفيد روحها، وكَيِّ إرادتها، لتبقى رهينةً في "زنزارة ذكراه".

لكن شمس الضحى اليوم لم تعد تلك الفتاة التي تركض "من" الذكرى، بل بدأت تتحول إلى المرأة التي تركض "نحو" ذاتها. تحسست جرحها الذي لم يندمل، وأدركت أن الشفاء لا يبدأ بالنسيان، بل بـ "الاعتراف" بأن الملاك الذي عبدته يوماً لم يكن سوى وهم من صنع حاجتها للأمان.

نظرت إلى المرأة مرة أخرى، وبنبرة لا تقبل الانكسار، همست لظلمتها:
"الذنب ليس ذنبي لأنني صدقت، بل ذنبه هو لأنه تزياً بزى الملائكة ليخدع قلباً لم يعرف يوماً معنى الغدر".

بدأت خيوط الشمس الحقيقية تتسلل عبر النافذة، تمسح وجهها المتعب بلمسات من نور. لم تكن شمس الضحى قد شفيت تماماً، لكنها في تلك اللحظة، قررت أن تخلع رداء الضحية، لترتدي درع المحارب. فالمعركة الحقيقية لم تكن معه، بل مع ذاك "الصدى" الذي يصر على إخبارها أنها ستبقى محطة للأبد.

الفصل الثالث: أطباق الملح والياسمين

لم تكن شمس الضحى قد استسلمت للنوم إلا مع تباشير الصباح، لكن رنين هاتفها الملح اخترق سكون غرفتها في وضح النهار. سحبت الهاتف بيدٍ مرتجفة، لتجد اسم "أحلام" يضيء الشاشة.

"أهلاً أحلام..!" قالتها بصوتٍ مبجوح يغالب النعاس.

"أهلاً بشمس عمري التي لا تشرق إلا متأخرة!" جاء صوت أحلام ضاحكاً ومفعماً بالحياة، "قومي يا شمس، طنجة اليوم ترتدي أجمل حللها، والبحر ينادينا. لا تقبلي النقاش، سنخرج في رحلة قصيرة لنستنشق بعض اليود، أنا في الطريق إليك."

بعد ساعة، كانت السيارة تشق طريقها نحو "الرميلات" ومنها نزولاً باتجاه الشاطئ البلدي. كان جو طنجة في ذلك اليوم فريداً؛ مزيجٌ من هواء المتوسط البارد ودفء شمسٍ خريفية خجولة. الرطوبة تداعب الوجوه برائحة الملح، وأصوات النوارس تعلو فوق ضجيج المدينة.

جلستا في مطعمٍ صغير قبالة الشاطئ، حيث الأمواج تتكسر على الرمال الذهبية في سيمفونية أزلية. طلبت أحلام طبق "الببصارة" الطنجاوية الأصلية المزينة بزيت الزيتون والكمون، وإلى جانبها "براد" شاي بالنعناع المغربي، يرتفع فوقه البخار برائحة منعشة تأسر الحواس.

ساد الصمت للحظات، كانت شمس الضحى تنظر إلى الأفق البعيد، وكأنها تبحث عن شيء ضاع منها هناك. وضعت أحلام كأساً من الشاي أمام صديقتها، وقالت بنبرة فجائية تحولت من المزاح إلى العمق:

"شمس.. أنت هنا جسداً، لكن روحك تهاجر إلى بلادٍ من الضباب. لم تعودى تلك السجية المرححة التي عرفتها. أرى في عينيك انكساراً لا تحكيه، وتراجعاً نفسياً يجعلني أخشى عليك من نفسك."

حاولت شمس الضحى المقاطعة، لكن أحلام أكملت بإصرار:

"أنا معك، ولن أتركك حتى لو لم تخبريني بالسبب. لكنني سأقترح عليك شيئاً بكل صراحة: أريدك أن تزوري معالجاً نفسياً. واسمعيني جيداً يا شمس.. ليس كل من يلتجئ إلى معالج نفسي فهو مريض نفسي، أحياناً نذهب لنفرغ أثقالاً لا تقوى الروح على حملها وحدها، لنعيد ترتيب فوضى الحواس."

بعد أيامٍ من التردد، وجدت شمس الضحى نفسها في مكتبٍ هادئٍ يطل على شوارع المدينة الصاخبة. جلس أمامها رجلٌ في الأربعين من عمره، يحيط نفسه بهدوءٍ يبعث على الارتياح.

"أهلاً بك.. أنا دكتور علي،" قالها بابتسامةٍ مطمئنة، "قبل أن نبدأ، أحب أن أعرفك بنفسك؛ أنا لم اختر هذه المهنة لمجرد العلاج، بل لأنني أو من أن خلف كل صمتٍ حكاية تستحق أن تُروى بكرامة. أنا هنا لأسمعك، لا لأحاكمك."

أحست شمس بنوعٍ من الطمأنينة لأول مرة منذ أمدٍ. سألتها علي بهدوء وهو يمسك قلمه:

"لنبدأ بالتعريف المعتاد.. ما هو اسمك؟"

"شمس الضحى.."

"عمرك؟"

"خمسة وعشرون عاماً."

"وتخصصك الجامعي؟"

ترددت قليلاً قبل أن تجيب: "الأدب العربي الحديث.. كنتُ أعشق فك الرموز في النصوص، ولم أعرف أنني سأصبح يوماً نصاً معقداً يعجز الجميع عن فهمه."

ابتسم علي وقال: "الأدب هو مرآة النفس يا شمس. والآن، أخبريني.. لماذا تبدين متعبة إلى هذا الحد؟ وهل أنتِ مستعدة الآن لتحكي لي الحكاية من بدايتها؟ لا تختصري شيئاً، خذي أنفاسك.. وابدئي من تلك النقطة التي شعرت فيها أن العالم لم يعد كما كان."

أغمضت شمس الضحى عينيها، وتنهدت تنهيدةً طويلة كأنها تخرج الروح، ثم قالت بصوتٍ خفيض:

"بدأ الأمر في يومٍ جامعيٍ عادي.. كنتُ أغادر الجامعة بقلبٍ لا يحمل سوى أحلام الأدب، ولم أكن أعرف أن خلف البوابة، ينتظرنني قدرٌ في هيئة ملاك.."

الفصل الرابع: غواية البياض

كان ذلك المساء من أكتوبر عام ألفين وعشرين يحمل رائحة الرطوبة الممتزجة بعطر الياسمين العالق بأسوار الجامعة. خرجت "شمس الضحى" من مدرج المحاضرات، تحمل في يدها نسخة من "ديوان المتنبي"، وفي رأسها تدور فلسفات الوجود وصراعات الحروف. كانت تشعر بخفة لا يملكها إلا من لم يذق مرارة الخيبة بعد؛ براءة كاملة تجعلها تظن أن العالم مجرد قصيدة طويلة بطلها دائماً ينتصر.

عند بوابة الخروج، تعثرت خطواتها حين سقط منها كتابها. وقبل أن تنحني، امتدت يدها غريبة، يدها بدأت في بياضها ونعومتها وكأنها نُحنت من مرمر.

"المتنبي لا يليق به أن يلامس الأرض، بل يليق به أن يسكن العيون".

رفعت رأسها لتلتقي عيناها بعينيه. لم يكن رجلاً عادياً، كان يبدو كخارج للتو من رواية كلاسيكية؛ هدوء يلف ملامحه، وابتسامة تحمل وقاراً لم تعهده في شباب جيلها. كان "الملاك المصطنع" يرتدي قناع النبل بإحكام لم تشهده "شمس الضحى" حتى في أعقد مسرحيات الأدب العربي.

"شكراً لك.. قالتها بخجل، وهي تستعيد كتابها، لكنه لم يترك الكتاب فوراً، بل أبقى أصابعه ملامسةً للغلاف للحظة كانت كافيةً لتمير تلك الرعشة التي يسمونها خطأً "انجذاباً"، بينما هي في الحقيقة كانت "إنذاراً" لم تفهم شفرته حينها.

بدأ الحديث بكلماتٍ تشبه "الخلاص". لم يتحدث عن الحب، بل تحدث عن الأدب، عن الغربية، عن الروح التي تبحث عن مأواها. كان يقرأ أفكارها قبل أن تنطق بها، وكأنه يملك مرآة ترى خبايا نفسها. كان ذكياً لدرجةٍ مرعبة؛ لم يحاول إغواء جسدها، بل بدأ بغواية عقلها، وهو يعلم أن المرأة التي تعشق الأدب، تُحتل من بوابة كلماتها.

"أتعرفين يا شمس..؟" قالها بنبرةٍ خفيفة وهو يمشي بجانبها تحت ظلال أشجار الجامعة، "أنتِ تشبهين تلك القوائد التي نخشى شرحها لكي لا نفسد جمالها."

سقطت شمس الضحى في بئر الثقة. لقد رأت فيه ذلك "المحيط" الذي سيحتوي أمواجها المتعبة، ولم تدرك أن المحيط، رغم جماله، يملك قدرةً هائلة على الإغراق. كانت كلماته كخيوط الحرير؛ ناعمة الملمس، لكنها تُغزل لتصبح كفنًا.

في ذلك اللقاء الأول، سقطت الحواجز الواحد تلو الآخر. لم يكن مجرد تعارف، بل كان استلاباً لروحها ببطء. عاودت شمس الضحى ذكرياتها وهي جالسة في عيادة "علي"، وأحست ببرودةٍ تسري في أطرافها وهي تصف كيف كان وجهه "بدا ملاكاً"، وكيف كانت رائحته تملأ المكان بوعودٍ كاذبة.

صمتت شمس الضحى فجأة، واغرورقت عيناها بالدموع.

"دكتور علي..؟ همست، "المشكلة لم تكن في كذبه، المشكلة كانت في صدقي أنا. لقد وثقتُ لدرجة أنني وهبته مفاتيح غرفتي المظلمة، ليدخلها بمصباحه، ويحرقني به في النهاية."

نظر إليها علي بعينين مليئتين بالتفهم، وسجل في مفكرته: الصدمة بدأت من "تقديس" الجراد.

الفصل الخامس: شباك الحرير

كانت سيارته السوداء الفارحة تنساب في شوارع طنجة بهدوءٍ يشبه هدوءه. لم يكن هناك صخب، بل كانت موسيقى كلاسيكية خفيفة تملأ الفراغ بينهما. كان يجلس خلف المقود بوقار، نظراته موجهة للطريق، يحترم "المسافة" التي وضعتها "شمس الضحى" بينهما بدقة متناهية، وكأنه يقدس حدودها الشخصية.

"هنا منزلي.. شكراً لك"، قالتها شمس وهي تلملم حقيبتها. لم يحاول الالتفات إليها بطريقة مربية، بل اكتفى بابتسامة رقيقة وقال: "شكراً لك أنت يا شمس، لأنك سمحت لي بأن أكون رفيق دربك لهذه الدقائق. الأدب الذي تحملينه في روحك هو الذي جعل الطريق قصيراً."

ترجلت من السيارة وهي تشعر بنوع من "الخفة". هذا الرجل لم يشبه أحداً ممن عرفتهم؛ لم يلق بكلمات الإعجاب المبتذلة، ولم يحاول تجاوز الخطوط الحمراء. كان "نبيلاً" لدرجة جعلتها تشعر بالخجل من حذرها المبالغ فيه. ومع توالي الأيام، بدأت تلك القلعة الصامتة التي كانت تسكنها شمس تنهار جدرانها. شمس التي كانت "كتومة" تزن الكلمات بميزان من ذهب، بدأت تتحول أمامه إلى عصفورٍ وجد غابةً آمنة. صارت تحكي له عن طفولتها، عن خوفها من الفقد، عن شغفها بكتب المنفلوطي وجبران، وهو ينصت.. ينصت وكأن كلامها هو دستور حياته.

توقف القلم في يد "شمس الضحى" داخل العيادة. كانت تنظر إلى يدها وكأنها لا تزال تشعر ببرودة مقبض السيارة في ذلك اليوم.

"كان نبيلاً جداً يا دكتور علي.. " قالتها وهي تهز رأسها بغير تصديق، "لم يلمس يدي، ولم يقل كلمة تخدش حيائي. كان يحادثني فقط بما أهوى. كنتُ أنا من يفتح له الأبواب، باباً تلو الآخر، ظناً مني أنني وجدتُ أخيراً ذاك 'الملاك' الذي يقرأ صمتي قبل كلامي."

كان الدكتور علي يدون في دفتره بتركيز، ثم رفع رأسه وقال: "هذا هو أخطر أنواع الاستدراج يا شمس. هو لم يقتحم حصونك، بل جعلك تفككيتها بنفسك تحت مسمى 'الأمان'. أخبريني.. متى شعرت لأول مرة أن هذا الأمان بدأ يتحول إلى شيءٍ آخر؟"

نظرت إليه شمس وعيناها تلمعان بدموعٍ محبوسة: "لم أشعر بذلك إلا بعد فوات الأوان. في البداية، كان كل شيء يبدو كأنه حلم.. حلم لم أرغب في الاستيقاظ منه."

الفصل السادس: مصيدة الأرواح المتشابهة

كانت الشمس تلملم خيوطها المذهبة من على شرفات "مقهى الحافة"، والحرارة تتبخر ببطء لتترك المكان لنسمات الأطلسي الباردة. جلس "هو" أمام "شمس الضحى" يراقب الأفق، وبجانبه كأسان من الشاي بالنعناع يرقص فيهما البخار كأرواح هائمة. لم يكن هناك ضجيج، فقط وشوشة البحر البعيدة وصوت فيروز الخافت ينبعث من راديو قديم في الزاوية. قال بصوت هادئ، يقطر عذوبةً مدروسة: "أتعرفين يا شمس؟ هناك أرواح لا تلتقي صدفة، بل هي شظايا من مرآة واحدة تفرقت في الزمان، وحين تلتقي، تشعر أنها كانت تعرف بعضها منذ ألف عام. أنا لا أراك غريبة، أراكِ النسخة التي فقدتها مني."

نظرت إليه شمس بذهول، وكأنه يقرأ الأسطر المخبأة في عمق قلبها. في تلك اللحظة، لم يكن مجرد رجل يجالسها، بل كان "توأم الروح" الذي وعدت به الأساطير. بدأ يسرد لها قصصاً عن وحدته، وعن بحثه الطويل عن امرأة "تفهم صمته قبل كلامه"، وعن خيالاته التي ادعى أنها جعلته "زاهداً" في البشر حتى وجدها. كانت كلماته تنساب كالعسل المسموم، تخدر حواسها وتجعلها تشعر بأنها "الاستثناء الوحيد" في حياته.

"أنتِ لستِ مجرد امرأة يا شمس، أنتِ وطني الذي كنتِ أبحث عنه وسط المنافى."

كان يبتعد عن أي حديثٍ مادي أو غريزي، ويغرقها في عالم من المثالية الروحية. كانت شمس الضحى، الطالبة الشغوفة بالأدب، تبتلع الطعام بكل لذة؛ فمن يمكنه مقاومة رجلٍ يقتبس لها جبران خليل جبران تحت سماء طنجة الساحرة؟ في تلك الجلسة، تحولت شمس من امرأة حذرة إلى طفلةٍ تضع يدها في يد "ملاكها"، وهي لا تدري أنها تسير نحو جرفٍ هار. لم يكن يتسلط، بل كان "يتملكها" بالود؛ يسألها عن يومها بأدق تفاصيله، لا من باب الرقابة، بل من باب "الاهتمام المفرط" الذي يشبه الحصار الناعم.

خيم الصمت على عيادة الدكتور "علي". كانت شمس الضحى تحرك ملعقتها في فنجان القهوة البارد، وعيناها مثبتتان على صورةٍ معلقة على الحائط، لكنها لا تراها.

"في تلك الجلسة يا دكتور، شعرتُ لأول مرة أنني لم أعد أملك قلبي.."
قالتها بصوتٍ مخنوق، "لقد زرع في عقلي فكرة أننا روحٌ واحدة في جسدين. كان اهتمامه يشعرني بالقدسية. لم أكن أعرف أن الاهتمام المفرط هو أول خيوط الكفن الذي كان ينسجه لي. كنتُ أظن أن غيرة الرجل 'النبيل' هي دليل الحب، ولم أفهم أنها كانت 'نزعاً للملكية'."

توقف الدكتور علي عن التدوين، ونظر إليها بتركيزٍ عميق، ثم قال: "هذه هي المرحلة التي نسميها 'الإغراق العاطفي'. هو يعطيك كل ما تفتقدينه من أمان وتقدير، ليبيني لنفسه رصيلاً يسمح له لاحقاً بمحاسبتك على أنفاسك. أخبريني يا شمس، متى بدأ هذا 'الوطن' يتحول إلى 'منفى'؟ متى ظهرت أولى ملامح الشيطان خلف ذلك الوجه الملائكي؟"

تنهدت شمس بعمق، وأحست برعشة خفيفة في كتفيها: "بدأ الأمر بكلمة 'خوفاً عليك'، وانتهى بكلمة 'أنت لا شيء بدوني'. بدأ الأمر حين طلب مني بلطف أن أبتعد عن 'أحلام' لأنها لا تفهمني كما يفهم هو.. لقد بدأ في عزلي عن العالم، وأنا كنتُ أصفق له حباً!"

الفصل السابع: سياجُ الغيرةِ المسموم

كانت "أحلام" تجلس في ركنها المعتاد بمكتبة الجامعة، تراقب "شمس الضحى" وهي تبتعد شيئاً فشيئاً. أحلام لم تكن مجرد صديقة دراسة، بل كانت الروح التي تقرأ مسافات الحزن في عيني شمس قبل أن تنطق. كانت ابنة طنجة الجريئة، ذات الملامح الحادة والقلب الذي لا يعرف المواربة. كانت تؤمن أن الحب الذي يسلب المرء أصدقاءه ليس حباً، بل هو عملية "استيطان" ممنهجة.

في ذلك المساء، وتحت أضواء شارع "محمد الخامس" الخافتة، كانت شمس تجلس في سيارته، حين رنّ هاتفها باسم أحلام للمرة الثالثة. لم تجب. نظرت إلى الهاتف بتردد، قبل أن يقطع هو حبل أفكارها بنبرة هادئة ولكنها تحمل ثقلاً غريباً:

"أحلام ثانية؟ ألا تعتقدين يا شمس أن اهتمامها بك يتجاوز حدود الصداقة الطبيعية؟ أخشى أن طبعها المندفع يؤثر على هدوئك الذي أعشقه. هي لا تفهم طبيعة علاقتنا، ولا تدرك أنك أصبحت تسكنين عالماً أرقى من ضجيجها."

نظرت إليه شمس بدهشة، لكنه أكمل ببراعة:

"أنا لا أطلب منك مقاطعتها، فأنا لست متسلطاً، لكنني أخاف عليك من أفكارها. إنها تحاول زرع الشك بيننا لأنها ببساطة.. تغار من هذا الصفاء الذي نعيشه. هي تريدك مشتتة مثلها، وأنا أريدك لي.. كاملة، مستقرة، ومحاطة بسياجٍ من حمايتي."

كانت كلماته تنزل على قلب شمس كبنجٍ موضعي؛ يُخدر الألم ويقنعها أن "العزل" هو في الحقيقة "اعتزالٌ للمنغصات". بدأت شمس تبرر له قسوته المبطنة تجاه أحلام، وبدأت تخفي عن صديقتها مواعيد لقائهما، لكي لا تسمع "تنبؤات" أحلام التي كانت تصفه دائماً بأنه "رجلٌ يرتدي قناعاً مثالياً لدرجةٍ تجعلني أرتعب".

توقفت شمس الضحى عن الكلام في العيادة، وبدأت تعبت بطرف وشاحها، وكأنها تحاول فك عقدةٍ في روحها.

"لقد نجح يا دكتور علي..". قالتها بمرارة، "لقد جعلني أرى خوف أحلام عليّ كأنه 'تدخلٌ سافر'، ورأيثُ تملكه لي كأنه 'خوفٌ نبيل'. كانت أحلام تقول لي: (يا شمس، الرجل الذي يحبك يفتح لك الأبواب، لا يغلقها في وجه صديقاتك)، لكنني كنتُ أعتقد أنها حاقدة لأنها لم تجد حباً مثل حبي."

كان الدكتور علي يسجل في مفكرته تحت عنوان (الاحتواء المدمر): المخادع يبدأ دائماً بضرب "خطوط الإمداد" العاطفية للضحية. عزلها عن أحلام كان الخطوة الأولى لتجريدها من "الرأي الآخر" لتبقى رهينة رأيه هو فقط.

نظر علي إلى شمس وقال: "أحلام كانت تمثل 'الواقع' الذي يفر منه هو. أخبريني، كيف كانت المواجهة الأولى بينهما؟ وكيف جعلت أحلام تشعر أنك اخترت 'الملاك' عليها؟"

أطرقت شمس برأسها، وانهمرت دمعاً حارة: "ذلك اليوم هو أكثر يوم أشعر فيه بالخزي من نفسي. لقد أسمعت أحلام كلاماً قاسياً بسببه، كلاماً كان هو من يلقنه لي في الليل، وأنا أفرغه في وجهها في الصباح. لقد فقدتُ درعي الوحيد في تلك اللحظة."

الفصل الثامن: احتراقُ الجسور القديمة

كانت السماء فوق طنجة ملبدة بغيومٍ رمادية ثقيلة، تنذر بعاصفةٍ لا تبقي ولا تذر. وفي مقهى صغير بـ "مالاباط"، كان الجو مشحوناً بصمتٍ يسبق الانفجار. جلست "أحلام" أمام "شمس الضحى"، وعيناها تقدحان شرراً من الخوف والقلق. لم تعد تحتل رؤية صديقتها تذوب كشمعةٍ في مهب ريح ذلك الرجل.

"شمس، اسمعيني جيداً وللمرة الأخيرة"، قالت أحلام وهي تضرب الطاولة بخفة لتوقظ شمس من شرودها، "هذا الرجل لا يحبك، إنه يستعمرِك! هل رأيتِ نفسك في المرأة مؤخراً؟ لقد انطفأ الضياء الذي في اسمك. صرتِ تستأذنينه في أنفاسك، وتعتذرين عن ذنوبٍ لم ترتكبيها. إنه يعزلك عني، وعن جامعتك، وعن نفسك، لكي لا تسمعي إلا صوته."

انتفضت شمس الضحى، وكان صوت "الملاك" يتردد في أعماقها كأنه تلقينٌ مقدس.

"أنتِ لا تفهمين يا أحلام! هو يخاف عليّ لأنني رقيقة، لأن العالم موحش. هو الوحيد الذي قدر قيمتي الأدبية ونزاهة روعي. أنتِ تسمين الاهتمام استعماراً لأنك لم تذوقي طعم أن يغار عليكِ رجلٌ يراكِ كل عالمه."

ضحكت أحلام بمرارة، ضحكةً بكت فيها روحها: "غيرة؟ بل هو سجنٌ بأسوار من الكلام المعسول. يا شمس، الرجل الذي يحب امرأة، يفتخر بنجاحها وقوتها، ولا يحاول إقناعها بأنها 'ضعيفة' وبدونه 'محض هباء'. غداً حين يسقط القناع، لن تجدي أحداً حولك، لأنه قطع كل الجسور."

في تلك اللحظة، ارتكبت شمس الضحى الخطيئة التي لم تغفرها لنفسها لسنوات. وقفت ببرودٍ غريب، وقالت بكلماتٍ حادة كالشفرات:

"ربما أنتِ من تغارين يا أحلام. ربما يزعجك أنني وجدتُ الخلاص الذي تفتقدينه. من الآن فصاعداً، لا تتصلي بي، ولا تدخلني في شؤوني. هو يرى أنكِ 'سامة' لحياتنا، وأنا الآن أصدقه."

غادرت شمس المقهى دون أن تنظر خلفها، تركت أحلام غارقة في ذهولها ودموعها. لم تكن شمس هي من تتكلم، بل كان "هو" يتحدث بلسانها، يفرغ سمومه التي حقنها بها طوال شهور في جسد الصداقة الوحيدة الصادقة.

عاد الهدوء الحذر ليسود عيادة الدكتور "علي". كانت شمس الضحى تغطي وجهها بكفيها، وأكتافها تهتز بنحيبٍ صامت ومكتوم.

"لقد طردتها يا دكتور.. " قالتها من بين شهقاتها، "طردتُ الإنسانية الوحيدة التي رأت الشيطان قبل أن يخلع قناعه. لقد أسمعُها أبشع الكلمات لأنني كنتُ أظن أن الدفاع عنه هو دفاعٌ عن طهري. كنتُ أعتقد أنني بقطع علاقتي بها، أقدم له 'قربان الطاعة' ليحبني أكثر."

دون علي في دفتره: مرحلة "الاستلاب التام". الضحية هنا تصبح "حارساً" لسجانها، وتهاجم كل من يحاول تحريرها. الغدر لم يبدأ بلمسة جسدية، بل بدأ بذبح "الولاءات" القديمة.

رفع علي نظره إليها وقال بهدوء: "أحلام لم تكن عدوتك، كانت 'حاسة الشم' التي فقدتها أنت بسبب تخدير الكلمات. أخبريني يا شمس، بعد أن أصبحت وحيدة تماماً في غابته، بلا صديقة وبلا ناصح.. ماذا فعل هو؟ كيف بدأ يغير نبرته بعد أن تأكد أنك لم تعد تملكين مخرجاً؟"

رفعت شمس رأسها، وكانت نظرتها فارغة، مرعبة في برودها: "هنا.. هنا بدأ يخبرني أنني 'نجسة' بسببه، وأني 'ساقطة' في نظر المجتمع، وأنه 'الستر الوحيد' الذي تبقى لي. بدأ الشيطان يضحك علانية، لأنني ببساطة.. لم أعد أملك مكاناً أهرب إليه."

الفصل التاسع: انكسار النّصل الأبيض

بعد أسابيع من القطيعة مع العالم، صار بيت "شمس الضحى" يبدو كصومعة مهجورة، لا يدخلها إلا صوته، ولا يحرك سكونها إلا حضوره الذي صار ثقيلًا ككابوس. وفي مساءٍ بارد، كانت تجلس بجانبه، تنتظر منه كلمة حنان تمحو بها تعب الأيام، لكنه التفت إليها بنظرة غريبة، نظرة لم ترها في عينيه من قبل؛ كانت خالية من ذاك الوجل المصطنع، وممتلئة بفيض من الاحتقار.

"أتعرفين يا شمس،" قالها وهو يشعل سيجارته ببرود، مستمتعاً بارتعاشة يدها، "أحياناً أتأمل في هذه الثقة التي تمنحنيها لي، وأتساءل: هل أنتِ حقاً تلك المثقفة التي تقرأ الكتب؟ أم أنكِ مجرد أنثى ناقصة، تبحث عن أي ظل لترتمي تحته؟"

سقطت الكلمة على مسمعها كوقع الصاعقة. تجمدت الدماء في عروقها، وحاولت استيعاب ما سمعت، لكنه أكمل بنبرة أكثر حدة: "لا تنظري إليّ بذهول. لقد وهبتي كل شيء، والآن تظنين أنكِ ما زلتِ تلك الطاهرة التي يشار إليها بالبنان؟ في مجتمعنا هذا، المرأة التي تمنح ثقتها بهذه السهولة هي امرأة فاسدة في نظر الجميع، ولولا وجودي في حياتك، لنهشتك الألسن

قبل الذئاب. أنا ستريك الوحيد، أنا الغطاء الذي يداري عورتك الفكرية
والنفسية."

كانت شمس الضحى تشعر بأن جدران الغرفة تضيق عليها، وأن الأكسجين
يهرب من رئتيها. لم يضربها بيده، لكن كلماته كانت تهشم عظام روحها
واحداً تلو الآخر. لقد كان يزرع في عقلها شعوراً بالدونية، ويقنعها بأنها
"ملوثة" بسببه، وأن قيمتها قد انعدمت بمجرد دخولها في فلكه. كان يطبق
عليها فكي "الابتزاز الأخلاقي"؛ فمن جهة هو "المحب الذي يسترها"، ومن
جهة أخرى هو "القاضي الذي يدينها".

ساد صمتٌ جنائزي في العيادة. كانت شمس الضحى تشبك أصابعها بقوة
حتى ابيضت مفاصلها، وصدرها يعلو ويهبط في محاولة بائسة لكتم صرخة
عمرها سنوات.

"لقد جعلني أصدق أنني حطام.. همست شمس، وعيناها مثبتتان على دفتر
الدكتور علي، "كان يقول لي أنني دونه مجرد نكرة، وأن ما حدث بيننا من
ثقة وبوح جعلني امرأة لا تصلح لغيره. لقد صبغ روحي بالأسود، وأقنعني
أنني ناقصة العقل والدين والكرامة، وأن بقائي معه هو 'الفضل' الذي يتكرم
به علي."

كان الدكتور علي يدون الكلمات بضغطٍ قوي على القلم، ثم رفع رأسه وقال
بنبرة ملؤها الإنسانية: "هنا تكتمل دورة 'التحطيم الممنهج'. بعد أن عدلك
عن أحلام، بدأ بهدم صورتك أمام نفسك. هو يحتاج أن تشعرني بأنك فاسدة
لكي لا تجرؤي على الرحيل، لكي تعتقدي أن لا أحد في هذا العالم سيقبل
بك غيره. لقد كان يحولك من 'شمس الضحى' إلى ظلٍ باهت يقات على
فتات غفرانه الزائف."

أغمضت شمس عينيها، وانسابت دمعة وحيدة، حارقة، تحكي قصة السقوط من شاهق: "والأفزع من ذلك يا دكتور.. أنني بدأتُ أصدقُه. بدأتُ أنظر إلى المرأة فلا أرى إلا امرأة ناقصة، وبدأتُ أعتذر له عن وجودي نفسه، وأشكر له 'ستره' الذي كان في الحقيقة كفني."

الفصل العاشر: رماد الكينونة

لم تعد شمس الضحى تملك من أمرها شيئاً؛ لقد استحالت إلى ما يشبه قطعة طينٍ طيبة، يعيد هو تشكيل تفاصيلها النفسية كما يحلو له. في تلك الشقة التي صارت تشبه القفص المخملي، كانت تجلس عند قدميه، لا تنتظر منه حباً، بل تنتظر "العفو". كانت نظرة منه كافية لترتجف أوصالها، وكلمة "رضا" عابرة منه هي غاية أملها، بعد أن أقنعتها أن العالم خلف بابها هو جحيمٌ لا يرحم امرأة "ناقصة" مثلها.

كانت السخرية في صوته أمراً اعتيادياً، يغلفها دائماً بغلاف النصيحة. كان يقول لها وهي تحاول كتابة سطرٍ واحد: "أتظنين أن هذا الهراء سيقراه أحد؟ لولا أنني أسترك وأحتوي عيوبك، لكان مكانك الهامش. أنتِ بدوني محضُ هباء، ريشة في مهب ريحٍ عاتية."

صارت شمس تخشى حتى أفكارها. كانت تراقب تعبيرات وجهه لتحدد هل يحق لها أن تبتسم أم لا. لقد نجح في غسل دماغها لدرجة أنها باتت ترى "قسوته" تقويماً، و"ابتزازة" خوفاً، و"إهاناته" حقيقة مطلقة. كانت هشة، منكسرة، ومسكونة برعبٍ داخلي من أن يتركها؛ فالفكرة التي زرعتها بأنها

"فاسدة" جعلتها تعتقد أن رحيله يعني انكشاف "عارها" الموهوم أمام الجميع.

خيم ثقلٌ خانق على عيادة الدكتور علي. كانت شمس الضحى تجلس بظهرٍ منحني، وكأنها لا تزال تحمل على كاهلها تلك الأيام السوداء. لم تكن تبكي، بل كانت نظراتها زائغة، تحكي قصة امرأةٍ سُلِبَ منها حقها في الوجود.

"كنتُ كالميتة التي تتحرك يا دكتور..". قالتها بصوتٍ خافت، يكاد لا يُسمع، "لقد فقدتُ صوتي، فقدتُ رغبتني في القراءة، وفقدتُ حتى ملامحي في المرأة. كنتُ أنظر إلى نفسي فلا أرى 'شمس الضحى' الطالبة المتميزة، بل أرى 'المرأة الفاسدة' التي أخبرني أنني أصبحتُها. لقد حولني إلى ظلٍ يتبعه، إلى صدىٍ يكرر كلماته."

دون الدكتور علي في مفكرته: مرحلة "المسخ النفسي". المعتدي هنا لم يعد يحتاج للتهديد، فقد أصبحت الضحية هي سجانة نفسها، تتبنى رؤيته الدونية لها وتدافع عنها. لقد تحولت الموهبة إلى رماد، والذات إلى عدم.

رفع علي نظره إليها بأسى، وسألها: "في تلك المرحلة التي بلغت فيها ذروة الانكسار، وحين أصبحت تلك 'القطة الطينية' بين يديه.. ألم تكن هناك صرخة مكتومة في داخلك؟ ألم تشعرني ولو لمرة واحدة أن هناك 'شمس' أخرى مدفونة تحت هذا الركام، تنتظر لحظة لتتنفس؟"

أطرقت شمس برأسها، وقالت بمرارة: "كانت هناك صرخة، لكنها كانت مخنوقة تحت ركام الخوف. كنتُ أعتقد أنني لا أستحق النجاة، وأنتي خلقتُ لأكون هكذا.. منكسرة للأبد."

الفصل الحادي عشر: قُضبانٌ من وَهْم

كانت شمس الضحى تقضي أيامها في حالة من الذهول العاطفي. لم يعد "هو" يكتفي بالكلمات الجارحة، بل صار يستمتع بابتكار مواقف تذلها. تذكرت ذلك المساء حين سكب القهوة على مسودات روايتها الجديدة، ونظر إليها ببرود قائلاً: "فعلتُ ذلك لأحميك من فضيحة نشر هذا الضعف.. أنت لا تملكين موهبة، أنت تملكين فقط خيالات امرأة مهزوزة". وبدلاً من أن تغضب، انحنت شمس تجمع الأوراق المبللة وهي تعتذر له لأنها "أزعجته" بكتاباتنا.

لقد وصل به الأمر إلى السخرية من شكلها ومن تخصصها في الأدب؛ كان يقول أمامها بضحكة خبيثة: "ما فائدة قصائدك إذا كنت عاجزة عن فهم أبسط قواعد الولاء لمن سترك؟". كانت تلك الكلمات تفتت ما تبقى من كبريائها، حتى صارت تشعر بالخجل من صوتها إذا ارتفع، ومن عينيها إذا التقت بعينه.

وفي خضم هذا الغرق، كانت "أحلام" لا تزال تحاول. لم تكن أحلام تكتفي بالاتصال، بل كانت تأتي إلى باب بيتها، تطرق لساعات، تترك رسائل

تحت الباب مكتوباً فيها: "شمس.. أنا هنا، لن أترككِ لهذا الغراب ينهش روحك، تذكرني من كنت".

وفي إحدى المرات، حين كانت شمس تهم بالخروج معه، اعترضت أحلام طريقهما في الشارع. صرخت أحلام في وجهه: "أنت مجرد مريض، تسكن عيوبك في جسد هذه المسكينة!". حينها، وبدلاً من أن تشكرها، وقفت شمس الضحى درعاً أمام "جلادها"، وقالت لأحلام بلهجة باردة تلقنتها منه: "أنت المريضة بغيرتكِ يا أحلام.. ارحلي عنا، هو قدرتي الذي ارتضيته، وأنت مجرد عارٍ من ماضٍ أريد نسيانه".

عادت شمس إلى واقع العيادة، وكانت يداها ترتجفان وهي تمسح دمعاً جافة.

"كانت أحلام تحارب من أجلي، بينما كنتُ أنا أحاربه بها..". همست شمس بمرارة، "كلما كانت تهاجمه، كان هو يلعب دور الضحية ببراعة، فيقول لي: (انظري كيف تؤذيني صديقتكِ لأنني أحبك). وكنتُ أنا، كقطعة الطين العمياء، أصدقه وأزداد قسوة على أحلام".

كان الدكتور علي يدون بسرعة، ثم سألتها: "أخبريني يا شمس عن تلك اللحظات التي كان يمارس فيها 'السخرية الممنهجة'.. كيف كان يحول نجاحاتك السابقة في الجامعة إلى نقائص؟"

تنهدت شمس بعمق: "كان يقول لي إن شهادتي في الأدب لا تساوي الورق الذي طبعت عليه، لأنني 'ناقصة' في فهم جوهر الحياة. كان بيتزني نفسياً بذكراي معه، يُشعرني أنني 'فاسدة' لدرجة أن أحداً لن يلمس يدي بعده. كان يطبق عليّ الحصار؛ لا مال، لا صديقة، لا ثقة بالنفس. كنتُ أعيش فقط لأرضيه، لعلّه يمنحني صكّ 'الغفران' الذي لا يملكه أصلاً".

نظر إليها علي وقال: "وهنا تكمن بشاعة الابتزاز؛ هو لم يسجن جسدي، بل سجن 'فكرتك' عن نفسك'. لقد صرت تروين قصتك بعينيه هو، لا بعينيك. ولكن، ماذا عن أحلام؟ كيف استمرت في المحاولة رغم كل هذا الصد العنيف؟"

أجابت شمس بصوتٍ متهدج: "أحلام كانت ترى 'شمس' التي لا أراها. كانت تعرف أنني تحت تأثير 'سحرٍ أسود' من التلاعب. في إحدى الرسائل التي تركتها تحت الباب، كتبت لي جملة هزت أركانِي، رغم أنني مزقتها حينها: (يا شمس، هو لا يسترك.. هو يدفئك حية لكي لا يرى أحدٌ قبحه في عينيك الجميلتين)".

الفصل الثاني عشر: تشريحُ السقوط

في هدوء العيادة الذي صار يشبه "غرفة اعتراف" كنسية، تتحنح الدكتور علي، وعدّل نظارته وهو ينظر إلى شمس التي كانت تبدو كأنها تتقلص داخل مقعدها.

سألها علي بنبرة هادئة لكنها تخرق الصمت:

"أخبريني يا شمس، في تلك المرحلة التي أسميتها 'الاحتراق'، كيف كان يستخدم 'نقاط ضعفك' التي بحث له بها في لحظات الصدق؟ كيف تحولت أسرارك إلى سكاكين في يده؟"

أغمضت شمس عينيها، وكأنها تستحضر مشهداً سينمائياً مؤلماً من ذاكرتها، ثم أجابت بصوت مرتعش:

"لقد كنتُ غبية يا دكتور.. وهبته الخريطة التي تدله على مواقع قلبي. تذكرتُ يوماً حين حكيتُ له عن خوفي القديم من فقدان الأمان، وكيف أنني فقدتُ والدي وأنا طفلة. في أقرب شجار تافه، نظر إليّ بسخرية وقال: (لا عجب أنكِ ملتصقة بي كالعقّة، أنتِ مجرد طفلة يتيمة

تبحث عن أب، ولستِ امرأة قادرة على الحب. لولاي، لكنكِ الآن تائهة في الشوارع تبحثين عن رجل يمنحك كسرة اهتمام)."

صمتت شمس قليلاً، ثم أكملت:

"لم يتوقف عند هذا الحد.. كان يعلم أن حلمي الأكبر هو أن أصبح كاتبة يشار إليها بالبنان. في إحدى الليالي، أخذ مسودات قصائدي التي كنتُ أعتبرها أثمن ما أملك، وبدأ يقرأها بصوت عالٍ وبنبرة ساخرة، كان يضحك على كل استعارة كتبتها، ويقول: (هل تظنين أن هذه التفاهات أدب؟ أنتِ لا تملكين موهبة، أنتِ تملكين فقط رغبة في لفت الانتباه. أنتِ ناقصة الخيال، وما تكتبينه هو محض هذيان امرأة لا تجد ما تفعله)."

قاطعها الدكتور علي بسؤال آخر، وهو يدون ملاحظة حول "التحطيم المهني":

"وكيف كان يتعامل مع 'جسدك'؟ لا أقصد اللمس، بل أقصد كيف كان يُشعرك تجاه أنوثتكِ وصورتكِ في المرآة؟"

ضحكت شمس ضحكة باهتة، أقرب للبكاء:

"كان يمارس عليّ 'الاشمئزاز المنظم'. كان ينظر إليّ وكأنني لوحة مشوهة. يقول لي: (انظري إلى شحوبك، إلى الهالات تحت عينيك.. من ذا الذي سينظر إليك غيري؟ أنتِ فاسدة من الداخل والخارج، وجمالكِ الذي تتباهين به قد انطفاً منذ أن عرفتني. لقد وهبتني نفسك، والآن لم يعد فيكِ ما يغري أحداً بالاقتراب)."

سألها علي بجديّة:

"وهل كان يستخدم 'التهديد بالرحيل' كوسيلة لإخضاعك؟"

أجابت شمس وهي تمسح دموعه حارقة:

"دائماً! كان يحمل حقائبه عند كل خلاف، ويقول لي: (سأتركك الآن، واذهبي لـ 'أحلامك' ولأدبك التافه، وانظري من سيحتوي امرأة 'ناقصة' ومحطمة مثلك). كنتُ أرتمي عند قدميه، أبكي وأتوسل إليه ألا يتركني للفراغ الذي زرعه في داخلي. لقد أقنعني أنني دونه 'عدم'، وأن العالم الخارجي سينبذني لأنني 'ملوثة' بسببه."

توقف علي عن الكتابة، ونظر إليها بعمق:

"ألم تحاول أحلام التدخل في هذه اللحظات الحرجة؟"

تنهدت شمس:

"بلى، أحلام كانت كالملاك الحارس الذي أرحمه بالحجارة. أتت يوماً ووجدته يصرخ في وجهي في الشارع. حاولت أن تسحبني من يده، لكنه دفعها بقوة وقال لها: (اسألها هي.. هل تريد البقاء مع 'سترها' أم الذهاب مع 'خرابة' مثلك؟). ونظرتُ أنا إلى أحلام، وبدلاً من أن أستنجد بها، قلت لها: (ارحلي يا أحلام، هو يعرف مصلحتي أكثر منك). لقد كسر إرادتي لدرجة أنني صرتُ أرى منقذي عدواً، وجلادي إلهاً."

أغلق الدكتور علي دفتره مؤقتاً، وقال بصوت حازم:

"شمس.. أنت لم تكوني فاسدة، ولم تكوني ناقصة. كنتِ فقط 'ضحية' لمهندس تلاعب بارع، عرف كيف يهدم الجدران ليسكن الحطام. الفصل القادم من رحلتنا يا شمس لن يكون عن أفعاله هو،

بل عن 'الصوت الصغير' الذي بدأ يهمس في قلبك: 'أنا لا أزال هنا'.."

الفصل الثالث عشر: هندسة الوهم

في تلك الأيام، كانت طنجة تبدو لشمس الضحى وكأنها مدينة من الأحلام؛ كل ركن فيها يهمس باسمه، وكل شارع شهد على نبلٍ لم تكن تظن أنه موجود إلا في بطون الكتب. كان "هو" يتقن فن "المسافة المقدسة"؛ المشهور الأولى لم تكن سوى استعراضٍ طويل للأخلاق والمبادئ، حيث كان يُشعرها أنها ملكة لا تُمس، وأن قربه منها ليس إلا رغبةً في حماية هذا "النقاء" الذي تمثله.

تذكرت ذلك اليوم في باحة الجامعة، حين كانا يجلسان تحت شجرة "الجاكاراندا" البنفسجية. كانت شمس تتحدث بحماس عن مشروع تخرجها حول "تمثلات الذات في الأدب النسائي"، وكان هو ينصت إليها بعينين تلمعان بالتقدير المفرط.

"أتعرفين يا شمس؟" قالها وهو يغلق كتابه بهدوء، "أنا لا أحبك فقط لجمالك، بل أحب هذا العقل الذي يسكنك. العالم من حولنا مليء

بالسطحية، وأنتِ المنارة الوحيدة التي تبقت لي. أخشى عليكِ من هذا الذكاء، فهو لعنة في مجتمع لا يفهم إلا الصمت."

لم يكن يمنعها من شيء حينها، بل كان يشجعها "ظاهرياً" ليحصد ثقتها المطلقة. كان يرسل لها في كل صباح مقطوعة موسيقية أو بيتاً من الشعر، ليجعل نفسه "المنبه" الأول لوعيتها. كان يتدخل في تفاصيل يومها بأسلوب "الاهتمام الخائف"؛ يسألها ماذا أكلت، ومع من تحدثت، ليس من باب الرقابة، بل ليوهمها أن أمانها هو شغله الشاغل.

أخذ الدكتور علي نفساً عميقاً، ولاحظ أن لغة جسد شمس بدأت تتغير؛ فبدلاً من الانكماش، بدأت تسترسل في وصف "الجمال" الذي كان يحيط بها، وكأنها تعيد عيش تلك الخديعة اللذيذة.

"شمس.. أريدك أن تصف لي بدقة تلك المرحلة.. مرحلة 'صناعة القدوة'. كيف كان يظهر نفسه أمامك كشخص لا يخطئ؟ وكيف كان يمتص استقلاليتك تحت مسمى 'الاندماج الروحي'؟"

نظرت شمس إلى سقف الغرفة، وابتسامة باهتة ومريرة ترتسم على شفيتها:

"كان يبدو كالقديس يا دكتور. لم يكن يتلفظ بكلمة نابية، وكان دائماً ما ينتقد الرجال الذين يسيئون معاملة النساء، ليقنعني أنه 'المستثنى'. في تلك الشهور الأولى، كان يطلب مني أن نحكي لبعضنا كل شيء، حتى تافه الأمور. كان يقول: (نحن روح

واحدة، لا أسرار بيننا). وبغباء المحب، كنتُ أفرغ له كل مخازن ذاكرتي. لم أكن أعرف أنني كنتُ أسلمه 'المفاتيح' التي سيغلق بها عليّ الأبواب لاحقاً."

سألها علي:

"وهل بدأتِ في تلك الفترة تتبعدين عن اهتماماتكِ الأخرى؟ هل بدأ يحل محل 'العالم' بالنسبة لك؟"

أجابت شمس وهي تهز رأسها بالإيجاب:

"نعم، وبطريقة ناعمة جداً. كان يقول لي مثلاً: (لماذا تضيعين وقتكِ في تلك الجلسات الصاخبة مع زميلاتكِ؟ أنتِ أرقى من ذلك، تعالي نقرأ معاً، تعالي نكتشف أنفسنا بعيداً عن ضجيج التافهين). وهكذا، بدأ العزل.. لا بالقوة، بل بالإقناع بأنني 'أفضل' من أن أكون مع غيره. صرْتُ أرى صديقاتي—وحتى أحلام في البداية—أقل ثقافة منه، وأقل تفهماً لعمق روعي. لقد جعلني أكتفي به، حتى صار هو أوكسجينني الوحيد، وحين ضمن أنني لم أعد أتنفس إلا به.. بدأ في سحب الهواء ببطء."

توقف علي عن التدوين لثانية، وقال:

"هذه هي أخطر المراحل؛ مرحلة 'الاستئناس'. هو لم يكسر جناحك في البداية، بل أقنعكِ أن الطيران في سمائه هو الوحيد الذي يليق بك. أخبريني عن أول 'شرخ'.. أول موقف شعرت فيه أن هذا النبل فيه مسحة من التملك؟"

تنهدت شمس، وبدأت عيناها تغيمان بالدموع:

"كان ذلك بسبب كتاب.. مجرد كتاب استعرته من زميل لي في
الفصل.."

الفصل الرابع عشر: شَرَكُ الكلماتِ الدافئة

كانت حياة شمس الضحى تدور في فلكه كما تدور الفراشة حول لهبٍ تظنه نوراً. لم تكن يومياتها مجرد تتابع للساعات، بل كانت "انتظاراً" مستمراً لرسائله، ونبضاً معلقاً برنة هاتفه. في غرفتها الصغيرة بمدينة طنجة، كانت تجلس لساعاتٍ تعيد قراءة رسائله النصية، تحلل كل فاصلة وكل كلمة، وكأنها نصوصٌ مقدسة. كانت أفكارها قد توقفت عن كونها ملكاً لها؛ فقبل أن تشتري فستاناً، أو تكتب قصيدة، أو حتى تختار نوع قهوتها، كان سؤالٌ واحد يلحُّ على ذهنها: "هل سيعجبه هذا؟".

كان قد تغلغل في تفاصيل حياتها كخيوط الحرير التي لا تُرى إلا حين تشتدُّ حول العنق. في الصباح، يرسل لها: "استيقظي يا شمسي، العالم لا يشرق بدونك"، فتستيقظ وهي تشعر أنها تملك الكون. وفي المساء، يقول لها بنبرةٍ مثقلة بالخوف الزائف: "أخشى أن يسرقك هذا العالم المادي مني، أنتِ جوهرةٌ لا يصح أن يراها أحدٌ غيري". كانت تشعر بأن هذا "العزل" هو

قمة الرومانسية، ولم تدرك أنه كان يسحب منها "هويتها" ليجعلها مجرد انعكاسٍ لرغباته.

في العيادة، كانت شمس الضحى تعبتُ بخبطٍ منسلتٍ من كمّ معطفها، وكأنها تحاول فك لغز حياتها.

"دكتور علي، هل تعرف ما هو الشعور الأصعب؟" سألت وهي لا تزال تنظر ليدها، "هو أن تعشقي سجانك لأنك تعتقدين أنه هو من صنع لك الحرية. كنتُ أظن أن اهتمامه بأدق تفاصيل يومي هو 'حبٌ أسطوري'. لم أفهم أن السؤال عن 'مع من تحدثت؟' لم يكن اهتماماً، بل كان 'تحقيقاً' مغلفاً بالدلال."

هز الدكتور علي رأسه متفهماً، وسألها بهدوء:

"أخبريني عن 'حادثة الكتاب' يا شمس.. تلك اللحظة التي رأيت فيها أول وميضٍ لعين الذئب خلف قناع الحمل."

أخذت شمس نفساً عميقاً، وعادت بذاكرتها إلى ممرات الجامعة:

"كان يوماً مشمساً.. كنتُ في المكتبة أبحث عن مراجع لبحثي، والتقيت بزميلي 'أمين'، وهو شابٌ خلوق لم يكن بيننا سوى زمالة الأدب. أعارني نسخة نادرة من كتاب (حديث الأربعاء) لطفه حسين. وعندما خرجتُ، وجدته 'هو' ينتظرني عند البوابة. رأني أحمل الكتاب، ورأى أمين وهو يلوح لي مودعاً."

صمتت شمس، وبدأت ملامح وجهها تتقلص وكأنها تعيش الموقف الآن:

"لم يصرخ. بل صمتت صمتاً مرعباً طوال الطريق. وعندما وصلنا إلى مكانٍ هادئ، التفت إليّ بهدوءٍ يسبق العاصفة وقال: (لماذا تأخذين كتاباً من رجالٍ غيري؟ ألا يكفيك ما أعطيك؟ أم أنك تحبين جمع المعجبين

حولك تحت مسمى الأدب؟). شعرتُ وكأنني ارتكبتُ جريمة شنيعة.
حاولتُ التبرير، لكنه قاطعني بنظرةٍ مليئةٍ بالخيبة الزائفة: (ظننتك أرقى
من ذلك يا شمس.. ظننتك لي وحدي، لكن يبدو أنك 'مشاع' لكل من
يبتسم لك).

قاطعها علي بصوتٍ رصين:

"هنا استخدم سلاح 'الذنب'. جعل من موقفٍ طبيعي جداً 'خيانة' لمبادئك،
أليس كذلك؟"

"بالضبط يا دكتور!" صرخت شمس بوجع، "لقد جعلني أبكي لساعات
أرجوه أن يسامحني علي 'خطيئة' لم ارتكبتها. ومنذ ذلك اليوم، بدأتُ
أتحاشى الحديث مع أي زميل، حتى الأساتذة صرْتُ أهرب من نقاشهم
خوفاً من غضبه. لقد نجح في غرس فكرة أن 'التواصل مع العالم' هو
'خيانة له'. وصار الكتاب الذي كان يمثل لي المعرفة، يمثل لي 'الخوف'.
هل تتخيل يا دكتور؟ لقد كرهتُ طه حسين لأنه كان السبب في حزنه!"

دون علي ملاحظة هامة: تدمير الدوائر الاجتماعية تحت مسمى
"الخصوصية والمقدس". الضحية تبدأ في فرض رقابة ذاتية على نفسها
إرضاءً للمتلاعب.

ثم سألتها:

"وكيف استغل هذا الموقف ليزيد من حصارك في الأيام التالية؟"

أجابت شمس بمرارة:

"بدأ يطلب مني كلمة السر لهاتفي، وقال لي: (إذا لم يكن لديك ما تخفينه،
فلماذا ترفضين؟ نحن روحٌ واحدة). وبغبائي، أعطيته مفاتيح
خصوصيتي. صار يقرأ رسائلي مع أحلام، ويسخر من 'تفاهة' أحاديثنا،

ويقنعني أن أحلام امرأة 'ناقصة الطموح' وستجذبني للقاع معها. كنتُ
أعيش صراعاً بين قلبي الذي يحب أحلام، وبين عقلي الذي بدأ 'هو'
ببرمجه."

الفصل الخامس عشر: فجوة الغياب وندوب الانتماء

في ركن هادئ من بيت عائلة شمس الضحى في طنجة، حيث تفوح رائحة القرفة من مطبخ والدتها التي غزا الشيب قلبها قبل رأسها، كانت شمس تعيش صراعاً صامتاً. البيت الذي كان يوماً يضج بضحكات والدها، صار واحة من الحزن الصبور. كانت "لالة فطيم"، والدة شمس، تراقب ابنتها بعينين قلقه؛ ترى شمس وهي تغرق في هاتفها، وكيف تبدلت نبرة صوتها من القوة إلى خضوع مريب، لكنها كانت تخشى أن تخذش "استقلالية" ابنتها التي أصبحت غريبة في بيتها.

كان "هو" قد درس تاريخ عائلتها بدقة الجراح. عرف أن رحيل والدها "الحاج إدريس" ترك في قلبها يتماً يتوق لسلطة رجل يحميها ويحتويها. لم يكن يواجه عائلتها بالعداء، بل كان يمارس "الالتفاف الماكر". كان يقول لها بهمس خفيض: "والدتك امرأة طيبة يا شمس،

لكنها تنتمي لزمٍ قديم، لا تفهم طموحك ولا تفهم احتياجك لي. إنها تحاول تقييدك بذكريات الماضي لأنها تخشى أن تطيري بعيداً، وأنا الوحيد الذي يملك الأجنحة التي تليق بك".

في العيادة، كان الدكتور علي يراقب شمس وهي تحضن نفسها بذراعيها، وكأنها تحمي طفلة صغيرة تسكن داخلها.

"شمس.. لنتحدث عن 'الحاج إدريس'. كيف استغل هو غياب والدك ليعيد تمثيل دور 'الأب' في حياتك؟"

ارتجفت شفة شمس السفلى، وقالت بصوتٍ متهدج:

"لقد كان يسكب الملح على جرح اليتيم وهو يبتسم يا دكتور. في إحدى المرات، رأني أبكي أمام صورة والدي، فاقترب مني وضممني بقوة— لم تكن ضمة حب، بل ضمة تملك—وقال لي: (والدك رحل وتركك وحيدة في عالم من الذئاب، ألا تدركين أن الله أرسلني لأكون عوضاً عنه؟ أنا الآن أبوك، وأخوك، وحبيبك. لا تحتاجين لاستشارة والدتك في أمورنا، فهي امرأة عاطفية قد تضرك من حيث تظن أنها تنفعل".

صمتت شمس، ثم أكملت بمرارة:

"بدأ يحرضني على أمي بذكاء. إذا طلبت مني أمي البقاء في البيت، يقول لي: (انظري، إنها تغار من وقتنا معاً، تريدك خادمة تحت قدميها لتملأ فراغها). وهكذا، صار البيت الذي كان ملاذي، يبدو لي كأنه سجن، وصار هو 'الحرية' المزعومة. لقد استغل يتمي ليقتنعي أنني 'مكسورة' بدونه، وأنني بدلاً من أن أكون ابنة الحاج إدريس

القوية، صرتُ مجرد امرأة 'ناقصة' السند، وهو السند الوحيد المتبقي لي في هذا الوجود."

سألها الدكتور علي، وهو يحلل "استراتيجية العزل العائلي":

"وكيف كانت علاقتك بإخوتك أو أقاربك في تلك الفترة؟ هل نجح في تشويه صورتهم أمامك أيضاً؟"

"بالطبع! كان ينتقي أخطاءهم البسيطة ويضخمها. إذا سألتني أخي عن غيابي المتكرر، كان يقول لي: (أخوك يريد ممارسة الرجولة الزائدة عليك لأنه يشعر بالنقص، لا تسمح له بتدمير خصوصيتك). لقد جعلني أرى خوف عائلتي عليّ كأنه 'تخلف اجتماعي' و'تسلطٌ ذكوري'. صرتُ أخبئ عنهما كل شيء، وصرتُ أكذب على أمي لأخرج لملاقاته. كنتُ أظن أنني أحمي حُبنا، بينما كنتُ في الحقيقة أحرق الجسور التي سأحتاجها للعودة حين يسقط بي القاع."

نظر إليها علي بعمق، وسألها سؤالاً جوهرياً:

"شمس، هل تشعرين الآن أنكِ كنتِ تبحثين فيه عن 'الأب' الذي فقدته، أم عن 'الحب' الذي كنتِ تظنين أنكِ تستحقينه؟"

أجهشت شمس بالبكاء، وقالت من بين شهقاتها:

"كنتُ أبحث عن 'الأمان' يا دكتور.. الأمان الذي رحل مع والدي. وهو أعطاني 'وهماً' بالأمان، ليأخذ في المقابل كل ما أملك. لقد أقنعني أن عائلتي 'أعداء' لنجاحنا، وأنا يجب أن نكون جزيرة معزولة. وحين انقطعت علاقتي بالجميع، واكتشفتُ وجهه الحقيقي، وجدتُ

نفسى فى وسط المحيط، وحيده، غريقة، ولا أجرؤ حتى على مناداة
أمى، لأننى كنتُ أخل من أن أقول لها: (لقد كنتِ على حق)."

الفصل السادس عشر: قفصُ المخملِ والغيرةِ المسمومة

زفت "شمس الضحى" الخبر لعائلتها وكأنها تفتح نافذة للضوء فى ليل
اليتم الطويل؛ لقد قُبلت فى تدريب مرموق بإحدى كبريات دور النشر
والمجلات الثقافية فى طنجة. كانت "لالة فطيم" تزغرد بقلبها وهى
تحضر "بغرير" الفرخ، وإخوتها يباركون لها هذه الخطوة التى
ستضع قدمها على أول طريق الاحتراف الأدبى. كانت شمس تشعر
بأن العالم يبتسم لها، لكنها كانت تنتظر "المباركة الأهم".

عندما التقت به فى ذلك المساء، كانت تتوقع أن يضمها فرحاً، لكنه
استقبل الخبر بصمتٍ ثقيل، ونظرةٍ انكسرت فيها عيناه بتمثيلٍ متقن
لدراما "الرجل المجرّوح".

"عمل؟" قالها بنبرة خافتة ومبحوحة، "أتركين جنة الهدوء التي بنيناها معاً لتختلطي بذئاب المكاتب؟ هل تظنين أن أولئك الرجال سينظرون إلى قلمك؟ لا يا شمس، سينظرون إلى فتنة عينيك وإلى رقة صوتك التي هي ملكي وحدي."

بدأ يمارس عليها "الاستعطاف المرضي"؛ أمسك يدها بقوة وأسند رأسه إلى كتفها كطفل يتيم، وقال: "أنا لا أحتمل فكرة أن يشاركني فيك أحد، ولو بنظرة عابرة في ممر ضيق. الرجل الحقيقي يا شمس لا يحب أن تختلط أنثاه بالرجال، ولا يرضى أن تكون 'شمسه' مشاعاً للغادين والرائحين. ألا يكفيك حُبي؟ ألا يكفيك رعايتي؟ هل المال والمكانة أهم من سكينه قلبي الذي يرتجف خوفاً عليك؟"

في العيادة، كانت شمس الضحى تفرك جبينها وكأنها تحاول طرد صداعٍ قديم يسكن ذاكرتها.

"دكتور علي.. لقد جعلني أشعر أن نجاحي هو 'إهانة' لرجولته، وأن طموحي هو 'خيانة' لحبنا. كان يبكي—نعم كان يبكي!—ويقول لي: (إن كنت تحبينني فعلاً، فلا تضعي نفسك في مواقف تثير غيرتي القاتلة، أنا رجلٌ شرقي، والشرقي لا يتقاسم أنثاه مع غبار الطرقات وزمالة المكاتب)."

دون الدكتور علي بتركيز: استخدام "الغيرة" كأداة للتحكم (*Control through Romance*). هو لا يمنعها بالسلطة، بل بـ "الابتزاز العاطفي" الذي يُشعر الضحية أنها 'قاسية' إذا لم تتنازل عن حلمها.

سألها علي:

"وكيف كانت ردة فعلك أمام فرحة عائلتك التي اصطدمت بغيرته؟"

أجابت شمس بمرارة:

"هنا بدأت مأساة الكذب. قلبتُ فرحة أمي إلى حزن؛ أخبرتها أنني 'فكرتُ جيداً' وقررتُ أن العمل سيعطيني عن دراستي، وأنني لستُ مستعدة نفسياً. رأيتُ الخيبة في عيني أمي، وسمعتُ أخي يقول لي: (هذه فرصة لا تتكرر يا شمس، لا تكوني هشة). لكنني كنتُ أدافع عنه في غيابه، كنتُ أقول لنفسي: (هو يحبني لدرجة الجنون، ومن أجل هذا الحب، يهون كل عمل). لقد تنازلتُ عن استقلالي المادي بيدي، ووضعتُ عنقي في حبلِ مشنقته، وأنا أظن أنه 'طوقُ ياسمين'!"

قاطعها علي بصوتٍ هادئ:

"وهل بدأتِ تشعرين بعدها بضيق الخناق؟ هل بدأ يتحكم في مصاريفك بما أنك أصبحتِ دون دخل؟"

تنهدت شمس:

"بالتأكيد. صار هو من يحدد أين أذهب وماذا أشتري. صار يقول لي: (لا ترهقي ميزانية والدتك، أنا هنا، سأشتري لك كل ما تحتاجين). وحين أصبح هو 'الممول' الوحيد، صار يملك حق الاعتراض على كل فستان، وكل كتاب، وحتى كل قطعة حلوى. لقد حولني من امرأة تملك قرارها، إلى 'دمية' تتحرك بخيوط غيرته وحبه المسموم. كنتُ أشعر بضيق التنفس، لكنني كنتُ أقنع نفسي بأن هذا هو 'الاحتواء' الذي تحلم به كل أنثى."

بكي صوت شمس وهي تكمل:

"الأفطع يا دكتور، أنه بدأ يسخر من عائلتي لأنهم 'دفعوني' للعمل. كان يقول: (أرأيت؟ يريدونك أن تبقي كرامتك في المكاتب ليأكلوا من عرقك، أما أنا.. فأريدك ملكة في محراب قلبي). وجعلني أصدق أن عائلتي تستغلني، وهو الوحيد الذي يقدر كرامتي."

الفصل السابع عشر: استرداد الألوان

ساد صمتٌ دافئٌ في العيادة، لم يقطعه سوى حفيف قلم الدكتور علي وهو يغلقه ببطء. نظر إلى شمس الضحى، ورأى في عينيها إجهاداً يفوق طاقة البشر، وكأنها خاضت معارك القرن في ساعة واحدة. قام من مقعده بهدوء، واتجه نحو ركنٍ صغير في الغرفة، ليعود بعد دقائق وبيده "صينية" نحاسية مغربية، يتوسطها براد شاي تفوح منه رائحة النعناع "العبدى" المنعشة.

"اليوم يا شمس، سنضع الأقلام جانباً، وسنترك الماضي ينام في أدراج المظلمة،" قال علي وهو يصب الشاي ببراعة لتتكون تلك "الرزة" التقليدية على وجه الكأس. "أريدك أن تشربي هذا الشاي، وتتشعري حرارته وهي تذيب الجليد في صدرك. هذه الجلسة ليست للبوح، بل للاستراحة من عناء البوح."

ناولها الكأس وتابع بنبرة أب حنون: "مهمتك اليوم ليست التذكر، بل العيش. أريدك أن تخرجي من هنا، تذهبي إلى منزلك، وتأخذي دوشاً دافئاً يغسل عنك غبار تلك السنين. ارتدي أجمل ما تملكين، ضعي عطراً تحبينه، لا لأنك تخرجين لمقابلة أحد، بل لأنك تقابلين 'شمس' التي افتقدتها."

ابتسمت شمس لأول مرة بصدق، شعرت وكأن "ثقلاً" قد رُفع عن كاهلها. غادرت العيادة ولفح وجهها هواء طنجة المنعش. عادت إلى بيتها، استسلمت لتدفق الماء الدافئ الذي كان يشعرها بأنها تتطهر من لمسات الذاكرة السامة. وقفت أمام خزانة ملابسها، واختارت فستاناً بلون "الأزرق الشاوني" الذي يعكس صفاء السماء، وزينت وجهها بلمسات خفيفة أعادت الحياة لملامحها الشاحبة.
رن هاتفها.. كانت "أحلام".

"أنا تحت البيت يا شمس، طنجة اليوم تلبس حلة العيد ولا يليق بنا أن نغيب."

خرجت شمس، وعندما رأتها أحلام، تسمرت في مكانها والدموع تتفرق في عينيها: "هذه هي شمسي! هذه هي الضحى التي أشرقت من جديد." انطلقتا معاً نحو "كورنيش" المدينة، حيث يمتزج زفير البحر بصياح الباعة وضحكات الأطفال. مشتتا طويلاً، تناولتا "المثلجات" تحت أشعة الشمس التي لم تكن حارقة، بل كانت كقبلة وداع دافئة للنهار. تحدثتا عن كل شيء؛ عن الكتب الجديدة، عن أحلام أحلام في السفر، وعن ذكريات طفولتهما المشتركة، دون أن

يُذكر "اسمه" ولو لمرة واحدة. كان صمتاً عن الألم، وصخباً في الحياة.

عند المساء، عادت شمس إلى البيت. كانت الرائحة المنبعثة من المطبخ تعيدها إلى زمن البراءة؛ والدتها "لالة فطيم" كانت قد حضرت "الطاجين" المفضل لديها. جلست العائلة كلها حول المائدة المستديرة. تبادلت شمس الضحى النكات مع إخوتها، وضحكت من قلبها وهي ترى والدتها تحكي قصص الجيران بطريقتها الفكاهية المعتادة. في تلك اللحظة، شعرت شمس بأن "الأرض" التي كانت تظنها اهتزت تحت قدميها، لا تزال ثابتة، وأن "الجدار" الذي ظنت أنها فقدته، لا يزال يحوطها بالحب.

قبل أن تنام، نظرت إلى المرأة. لم ترَ "المرأة الناقصة" التي حاول إقناعها بها، بل رأت امرأة قوية، بدأت أولى خطواتها في فك الأغلال. لقد أدركت أن الدكتور علي لم يكن يعالجها بالكلمات فقط، بل كان يعالجها بـ "الحياة" نفسها، يفتح الستارة ببطء ليرى عينيها وهي تعناد الضوء مجدداً، لتعود "شمس القديمة" ولكن بروح أكثر نضجاً وحكمة.

الفصل الثامن عشر: مرأياً الذاتِ الصافية

في الجلسة التالية، لم يكن الجو مشحوناً بالدموع أو بالرغبة في الهروب. كانت أشعة الشمس تتسلل عبر نافذة مكتب الدكتور علي، ترسم مربعات ذهبية على السجاد. وضع علي مفكرته جانباً، وشبك أصابعه ببعضها، ثم نظر إلى شمس التي كانت تبدو "مختلفة" اليوم؛ كان هناك بصيصُ نورٍ خفي في نظرتها.

"اليوم يا شمس، لن أتحدث أنا، ولن يتحدث 'هو' في ذاكرتك،" بدأ علي بنبرة هادئة. "أريد أن أتعرف على شمس التي كانت قبل أن يلوث الغبار مرآتها. أخبريني.. ما الذي يجعل قلبك يرقص؟ بعيداً عن الأشخاص، ما الذي يستهويك في هذا العالم؟"

أخذت شمس نفساً عميقاً، وابتسمت كأنها تستحضر أطيافاً محببة:

"أحبُّ اللون الأخضر الزيتوني، يا دكتور.. يذكرني بأشجار جبال الريف وبصمود الأرض. وفي الكتب، لستُ من هواة النهايات

الوردية، بل أبحث عن 'الصدق' في الكلمة. تستهويني روايات
'دوستوفسكي' لأنها تعتصر الروح لتخرج منها الحقيقة، وأعشق
وصف 'رضوى عاشور' للأمكنة، فهي تجعل الحجر يتكلم."

استرسلت في الحديث، وكأنها تفتح صناديق مخبأة:

"في الناس، تقتلني الصفة التي تفتقد لـ 'النبيل'. النبيل عندي ليس في
الجاه، بل في تلك اليد التي تمتد لتسندك دون أن تشعر بك بضعفك.
أحب الشخص الواضح، الذي يشبه ماء 'المنبع'؛ لا تعكير فيه ولا
مواربة. وأكره 'الغموض المصطنع' الذي يختبئ خلفه الضعفاء
ليظهروا بمظهر العظماء."

ميل الدكتور علي برأسه مهتماً وسأل:

"وما هي الصفات التي تحبينها في نفسك يا شمس؟ أو التي كنت
تحبينها قبل أن يفتعك أنك 'ناقصة'؟"

صمتت شمس قليلاً، ثم قالت بزهو هادئ:

"كنتُ أحبُّ شجاعتي في قول 'لا'. وكنتُ أحبُّ قدرتي على العزلة
دون شعور بالوحدة؛ كان كتابي يكفيني عن ضجيج العالم. كنتُ أرى
في نفسي ذكاءً فطرياً يجعلني أقرأ الوجوه بسرعة. كانت عندي
'بصيرة'.. " توقفت لحظة ثم أكملت بأسى خفيف، "تلك البصيرة التي
عطلتها عمداً لأنني أردتُ أن أصدق كذبتة."

أجابها علي:

"البصيرة لا تموت يا شمس، هي فقط تنام لتستريح. وماذا عن أحلام؟ ما الذي يجعلك متمسكة بها رغم كل الجراح التي تسببت لها فيها؟"

"أحلام هي 'مرآتي الصادقة'. أحب فيها صراحتها الجارحة التي تشبه الملح؛ يوجع الجرح لكنه يطهره. هي الإنسانية التي لا تجمل لي القبح، ولا تصفق لي وأنا أسقط. الوفاء فيها ليس مجرد كلمة، بل هو فعلٌ يومي. إنها تذكرني دائماً بأنني 'شمس الضحى'، ابنة الحاج إدريس التي لا تقبل الانحناء."

تابع علي بابتسامة:

"لو طلب منك أن تكتبي رسالة لنفسك الآن، ما هي الكلمة التي ستكررينها؟"

نظرت شمس نحو الأفق، وقالت بيقين بدأ يتشكل:

"سأقول لنفسي: 'أنت كافية'. لست بحاجة لظل رجل ليثبت وجودك، ولست بحاجة لغفران أحد لتكوني طاهرة. جمالك في نبل عزمك، وفي قدرتك على النهوض من بين الرماد."

أغلق علي الجلسة وهو يشعر بأن "أعمدة" شخصيتها بدأت تستقيم مجدداً. لقد نجح في جعلها تدرك أن "النقص" كان فيه هو، وأنها هي "الكمال" الذي حاول سرقة

الفصل التاسع عشر: جُذورُ الضياءِ وأطيافُ الصِّبَا

في تلك الجلسة، بدا وكأن الوقت قد توقف. وضع الدكتور علي كأسَي الشاي جانباً، واستند إلى مكتبه بنظرةٍ تشجع على الغوص في المسكوت عنه.

"شمس.. لكي نفهم لماذا انكسرت تلك الشجرة العالية، يجب أن نفهم أولاً كيف عُرسَت بذورها. حدثيني عن 'مملكة الحاج إدريس'.. كيف كانت حياة الفتاة الوحيدة بين ذكورٍ يُفترض أنهم حراسها؟"

ابتسمت شمس، وظهرت في عينيها لمعةٌ من زمنٍ بعيد:

"كان والدي، الحاج إدريس، يرى في 'قرة عينه' وقصيدته التي لم يكتبها. في بيتنا بطنجة، لم أكن 'الأنثى' بالمعنى التقليدي الضعيف. كان والدي يجلسني بجانبه في مجالس الرجال، ويفتخر بذكائي وسرعة بديهتي. كان يقول لإخوتي الثلاثة: (شمس أختكم، لكنها

عقلكم الذي تفكرون به، فاستشيروها). لم أشعر يوماً أن كوني فتاة ينقص من قدرتي؛ بل على العكس، كنتُ المدللة والمطاعة، وإخوتي، رغم خشونتهم، كانوا يتسابقون لإرضائي."

توقفت قليلاً، ثم أردفت بنبرة أعمق:

"لكن هذا الدلال يا دكتور كان 'سلاحاً ذو حدين'. لقد نشأتُ وأنا أظن أن كل الرجال يشبهون والدي وإخوتي؛ يحمون دون أن يسجنوا، ويحبون دون أن يمتلكوا. لم أكن مهياًة لمقابلة 'ذئب' يرتدي ثياب الواعظين."

سألها علي وهو يدون ملاحظة حول "الأمان المثالي":

"وكيف دخلت 'أحلام' إلى هذا العالم المحصن؟ متى أصبحت تلك الغريبة أقرب إليك من ذلك؟"

"تعرفتُ عليها في أول يوم لي بالثانوية. كانت أحلام فتاة 'متمردة' بالفطرة، قصيرة القامة بلسانٍ طويل وقلبٍ من ذهب. رأيتني أجلس وحدي أحمل كتاباً، فجاءت وقالت لي بجرأتها المعهودة: (لماذا تقرئين لنجيب محفوظ وأنتِ تعيشين في مدينة تشبه روايات ماركيز؟). ضحكنا ومنذ تلك اللحظة لم نفترق. أحلام هي من كانت تعرف عني ما لا تعرفه أمي؛ كانت تعرف مراهقتي، وأول قصيدة كتبتها في الخفاء، وأول شعور بالخوف من المستقبل. هي التي كانت تشم رائحة الخطر من بعيد. ولأصدقك القول يا دكتور.. أحلام هي التي وضعت عنوان عيادتك في حقيبتني قسراً، وقالت لي وهي تبكي: (إما أن تذهبي لعلي، أو اعتبري أن شمس التي أعرفها قد ماتت)."

انتقل علي بذكاء إلى مرحلة أكثر حساسية:

"وفي المراهقة.. تلك المرحلة التي يبدأ فيها تشكل الوعي بالآخر..
كيف كانت شمس؟ هل كانت تحلم بـ 'الفارس'؟"

ضحكت شمس بمرارة:

"في مراهقتي، كنتُ أظن أنني أذكى من أن أقع في فخ الحب التقليدي. كنتُ غارقة في الفلسفة الوجودية، وفي أدب المهجر. كنتُ أبحث عن 'عقل' يوازي عقلي، لا عن وجهٍ جميل. كنتُ أقول لأحلام: (الرجل الذي سأحبه يجب أن يكون مكتبةً متنقلة، لا مجرد عضلات ووعود). وهنا تكمن المفارقة؛ فالمخادع دخل إليّ من باب 'المكتبة'. قرأ نقاط ضعفي الثقافية قبل أن يقرأ ملامحي. لقد استغل ذلك الكبرياء الأنثوي الذي بنيته في مراهقتي، وحوّله إلى 'طعم' ليصطادني به."

أوماً علي برأسه وقال:

"إذن، أنتِ لم تكوني تبحثين عن رجل يسد نقصاً، بل كنتِ تبحثين عن مرآة لذكائك. وهذا ما جعله يركز على 'تدمير ذكائك' لاحقاً لكي يسهل عليه هدمك."

أغمضت شمس عينيها، وقالت بصوت خافت:

"نعم.. لقد كان يعرف أنني ابنة الحاج إدريس التي لا تكسرهما الشدة، فاستخدم 'اللين المسموم' ليذيني ببطء. لقد جعلني أرى في يتمي 'عجزاً'، وفي دلال إخوتي 'تسلطاً'، وفي صدق أحلام 'غيرة'. لقد أعاد تعريف عالمي بالكامل يا دكتور، حتى صرتُ غريبة عن نفسي."

الفصل العشرون: منارة الجامعة وظلال الغواية

كانت مدرجات جامعة "عبد المالك السعدي" تشهد لـ "شمس الضحى" بأنها لم تكن مجرد طالبة عابرة؛ كانت صوتاً قوياً في حلقات النقاش، وقارئةً نهمة تفكك النصوص الصعبة ببرود الجراحين وشاعرية المبدعين. في تلك الفترة، كانت شمس تعيش "عصرها الذهبي"؛ مستقلة، طموحة، وتحيط نفسها بهالة من الغموض الجذاب الذي يجعل الجميع يهاب الاقتراب منها، إلا "أحلام" التي كانت رفيقتها الدائمة، تارةً تضحكان في المقصف، وتارةً تتجادلان حول قصيدة لنزار أو مقال لطف حسين.

في العيادة، كان الدكتور علي يراقب لغة جسد شمس؛ كيف ارتفع رأسها قليلاً وهي تحكي عن نجاحاتها، وكيف استعادت نبرة صوتها "الرنين" القديم.

"شمس.. صفي لي تلك الفتاة التي كانت تدخل المدرج فيشرق به الضياء. كيف كنتِ ترين مستقبلكِ آنذاك؟ وقبل أن يظهر 'هو'.. هل كان هناك من حاول طرق باب قلبك؟"

ابتسمت شمس بمرارة، وهي تنظر إلي كفيها:

"كنتُ أرى نفسي أديبةً عالمية، أو ناقدةً تهتز لمقالها الأقلام. كان مستقبلي مرسوماً بدقة؛ شهادة دكتوراه، ثم سفر إلى باريس أو القاهرة. أما الرجال.. فقد كانوا حولي كالفراشات، لكنني كنتُ كالجبل، لا يهزني إعجابٌ عابر أو كلمات غزلٍ رخيصة. كنتُ أبحث عن 'النذ'، عن الشخص الذي يستطيع أن يبارزني في الفكر قبل أن يغازلني في الشكل."

صمتت قليلاً، ثم أردفت بعمق:

"كان هناك زميل، 'أمين'، الذي ذكرته لك سابقاً. كان نبيلاً بصدق، وكان يحبني بصمتٍ يحترم كبريائي. لكنني كنتُ أراه 'عادياً' جداً، ربما لأن والدي وإخوتي دلونني لدرجة أنني صرتُ أبحث عن 'الاستثناء'، عن الرجل الذي يشبه الأساطير. وهنا دخل 'هو'.. لم يدخل كطالب، بل دخل كـ 'أستاذ' للحياة، كشخصٍ يملك مفاتيح لم أكن أملكها."

سألها الدكتور علي بذكاء:

"وهل كانت 'أحلام' تشجعك في تلك الفترة على الانفتاح، أم أنها كانت تلاحظ بداية 'الانعزال' خلف كتبك وفلسفتك؟"

"أحلام كانت تقول لي دائماً: (يا شمس، أنتِ تعيشين في برج عاجي، انزلي إلى الأرض، الحب ليس قصيدة، الحب هو واقع). وعندما ظهر 'هو'، ظننتُ أنني وجدتُ أخيراً 'الواقع' الذي تمنته لي أحلام. في البداية، كان يشجعني على التفوق، كان يحضر لي المراجع النادرة، ويناقشني في محاضراتي بساعات. جعلني أشعر أنني 'مشروعه' الأهم."

تنهدت شمس، وبدأت ملامحها تذبل مجدداً:

"الآن فقط أفهم.. هو لم يكن يشجعني حباً في نجاحي، بل كان 'يدرس' تضاريس عقلي ليعرف من أين يهدمها. كان يمدح ذكائي ليقنعني لاحقاً أن هذا الذكاء هو 'لعنة' تجعلني غير صالحة للحياة الزوجية التقليدية. في الجامعة، كنتُ المنارة التي يهتدي بها الجميع، وحين دخلتُ مداره، أقنعني ببطء أن نوري 'مؤذٍ'، وأن العتمة بجانبه هي الأمان الوحيد."

نظر إليها علي وقال بصوتٍ رخيم:

"إذن، هو لم يكسر شمس الضحى الضعيفة، بل كسر شمس القوية.. لأن كسر الأقوياء هو ما يمنح المرضى أمثاله شعوراً بالانتصار. أخبريني، في أي لحظة جامعية شعرت لأول مرة أنك بدأتِ تفقدين 'بريقك' الأكاديمي بسببه؟"

"حين بدأتُ أتغيب عن المحاضرات لألتقي به، وحين بدأتُ أعتذر عن المشاركة في الندوات لأنني صرتُ أخشى أن يرى 'تألقي'

الرجال فيغار هو.. لقد بدأ يطفئ المنارة، شمعةً تلو الأخرى، وأنا
كنتُ أظن أنني أصنع 'خصوصية' لحننا."

الفصل الحادي والعشرون: فُحُّ المَدِيحِ المسموم

كانت قاعة الندوات بالمركز الثقافي تغصُّ بالمتقنين والطلبة، ورائحة
الورق القديم تمتزج برائحة البحر المنبعثة من النوافذ المفتوحة.
اعتلت شمس الضحى المنصة لتلقي مداخلتها حول "اغتراب الذات
في الرواية المعاصرة". كانت تتحدث بثقةٍ تامة، وصوتها الرخيم
يملاً القاعة، وعيناها تشعان بذلك الذكاء الذي ورثته عن الحاج
إدريس. كانت، كما وصفتها أحلام لاحقاً، "برقاً يخطف الأبصار".
عندما انتهت، وتصاعد التصفيق، لم تلمح بين الحضور سوى رجل
واحد. لم يكن يصفق بحرارة كالبقية، بل كان ينظر إليها بابتسامةٍ
هادئة، ابتسامة من "يفهم" ما وراء الكلمات.
في العيادة، أغمضت شمس الضحى عينيها، وكأنها تستنشق عبير
ذلك اليوم:

"جاء إليّ بعد انتهاء الندوة، يا دكتور. لم يقل 'أحسنت' كما فعل الجميع. بل قال بنبرة خفيضة، وكأنه يهمس بسرّ مقدّس: (لقد كنت رائعة، لكنك كنت حزينة جداً خلف تلك الكلمات.. لا أحد يحلل الاغتراب بهذا الصدق إلا إذا كان يعيشه في أعماقه)".

توقفت شمس، وارتجف صوتها:

"هذه الجملة كانت هي 'الاختراق'. لقد ضرب على وتر 'الروح المستوحدة' داخلي. لم يمدح عقلي فقط، بل ادعى أنه رأى 'قلبي'. وفي تلك اللحظة، شعرت لأول مرة في حياتي أن هناك شخصاً رآني حقاً، لا كما يراني الناس كـ 'متفوقة'، بل كما أنا في هشاشتي التي كنت أخفيها".

سألها الدكتور علي بتركيز:

"وكيف استمر في استدراجك في تلك الندوة؟ كيف جعل اللقاء الأول يتحول إلى 'وعدا' بلقاءات أخرى؟"

"بدأ ينتقد بعض النقاط في مداخلتي بذكاءٍ شديد، ليثبت لي أنه 'ندّ' فكري. لم يكن يوافقني على كل شيء، وهذا ما جذبني. الرجل الذي يوافق المرأة على كل ما تقوله هو رجل ممل، أما هو.. فقد كان يتحدى عقلي. قال لي: (أريد أن أناقشك في نقطة الوجودية، لكن ليس هنا وسط هذا الضجيج.. شمسٌ مثلك لا يليق بها إلا الهدوء)".

تنهدت شمس وأكملت:

"أحلام كانت تقف بعيداً، تراقب المشهد. عندما خرجنا، قالت لي بجملتها التي لا أنساها: (شمس، هذا الرجل لديه عينان باردتان كالثلج، رغم كلامه الدافئ.. احذري). لكنني سخرتُ منها، وقلتُ لها إنها تبالغ في دراما الروايات. كنتُ أظن أنني وجدتُ 'العقل' الذي يفهمني، ولم أدرك أنني وجدتُ 'المرأة' التي ستعكس لي قبحي الموهوم لاحقاً."

دون الدكتور علي ملاحظة: البداية كانت "تفنييد القوة". هو لم يمدح نجاحها، بل بحث عن "ثغرة الضعف" (الحزن خلف الكلمات) ليدخل منها. المعتدي السيكوباتي يبحث دائماً عن "الجرح" ليعمقه.

سألها علي:

"شمس، هل تذكرين أول شعور بالخوف شعرت به معه في ذلك اليوم؟ أم أن الانبهار كان يعمي بصيرتكِ تماماً؟"
أجابت بصدق مؤلم:

"شعرتُ برعشة خفيفة عندما لمس يدي وهو يسلمني بطاقته الشخصية.. لم تكن رعشة حب، كانت 'قبضة' خفيفة، وكأنه يقول لي: (لقد أمسكتُ بك). لكنني، وبسبب 'غروري المثقف'، فسرتها على أنها 'كيمياء اللقاء الأول'. لقد كنتُ مغرورةً بذكائي يا دكتور، لدرجة أنني ظننتُ أن لا أحد يستطيع خداعي.. وهذا الغرور كان أول مسمار في نعشي."

الفصل الثاني والعشرون: جزيرة العزلة المقدسة

اختار لموعدهما الأول مكاناً يشبهه؛ مقهى عتيقاً في زقاق منسي من أزقة "القصبة"، جدرانه مغطاة برفوف الكتب ورائحة البخور تفوح في أرجائه، بعيداً عن صخب الجامعة وعيون المتطفلين. جلس أمامها، يراقبها وهي تتصفح قائمة المشروبات بتردد، ثم قال بصوتٍ خفيض ينساب كالموسيقى:

"الأماكن العادية لا تليق بك يا شمس.. أنتِ تحتاجين إلى صمتٍ يشبه صمت اللوحات الزيتية، لتخرج الكنوز المخبأة في روحك". في العيادة، كانت شمس الضحى تضم كأساً من الشاي بين يديها، وكأنها تستمد منه الدفء لمواجهة برودة تلك الذكرى.

"دكتور علي.. في تلك الجلسة، شعرتُ وكأنني انفصلتُ عن الجاذبية. لم يكن يتحدث عن الحب، كان يتحدث عن 'السمو الروحي'. قال لي إن الناس حولنا—بمن فيهم عائلتي وأحلام—

يعيشون في 'قشور' الحياة، وأنا نحن الاثنان فقط من يملك الجرأة
للغوص في الأعماق."

سألها الدكتور علي وهو يراقب بريق "الاستلاب" في عينيها:
"وكيف بدأ في تلك اللحظة تسميم علاقتك بالآخرين؟ كيف حوّل
'الأمان' الذي يحيط بك إلى 'قيود'؟"

"بدأ يسألني عن أحلام.. " قالت شمس بمرارة، "قال لي: (أحلام
فتاة طيبة، لكن هل تشعرين حقاً أنها تفهم قلقك الوجودي؟ هي
تحبك بـ 'عاطفة بدائية'، لكنها قد تشدك إلى الأسفل دون أن تدري.
أنتِ تحتاجين إلى من يخلق معك، لا من يمسك بقدميك خوفاً عليكِ
من السقوط). جعلني أشعر أن صدق أحلام هو 'جهل'، وأن
حرصها هو 'ضيق أفق'."

توقفت شمس، ثم أكملت بصوتٍ متهدج:

"ثم انتقل إلى عائلتي.. سألني عن والدي، وعندما أخبرته عن
دلالة لي، لم يبتسم. بل قال بنبرة مليئة بالأسى المصطنع: (والدك
غمرك بحبّ جعلك هشة أمام العالم، وإخوتك يحيطون بك سياجاً
يمنعك من اكتشاف قوتك الحقيقية. هم يحبون 'صورتهم' فيك، لا
يحبون 'ذاتك' المجردة. أنا الوحيد يا شمس الذي يجروء على أن
يراك كما أنتِ، بلا رتوش وبلا حماية عائلية كاذبة)."

دون علي في مفكرته: عملية "فك الارتباط". المعتدي يبدأ بإقناع الضحية أن من يحبونها هم في الحقيقة "عقبات" أمام تطورها الشخصي. إنه يبني "جزيرة" لا يسكنها إلا هو وهي.
سألها علي:

"و هل صدقت في تلك اللحظة أنك وإياه 'نخبة' فوق البشر؟"
أجابت شمس بأسى:

"نعم! لقد سحرني بفكرة 'الاستثناء'. أقنعني أن علاقتنا هي رحلة مقدسة لا يجب أن يلوثها رأي أمي أو نصيحة أحلام. قال لي جملة قتلتني لاحقاً: (نحن وطنٌ لبعضنا، وكل ما هو خارج حدودنا هو منفى). وهكذا، وبكل طواعية، بدأتُ أنبي الجدران بيني وبين العالم. صرْتُ أرى في نصائح أحلام 'تدخلاً'، وفي خوف أمي 'جهلاً'. لقد عزلني بالمديح، وسجنني في 'برج عاجي' مفتاحه الوحيد في جيبه."

أغمضت شمس عينيها، وانهمرت دموع صامتة:

"في نهاية ذلك اللقاء، شعرتُ أنني ولدتُ من جديد، ولم أدرك أنني كنتُ أوقع على شهادة وفاتي كإنسانة مستقلة. لقد منحني 'هوية' جديدة صممها هو على مقاس رغباته، وترك 'شمس الضحى' القديمة جثة هامة في ذلك المقهى العتيق."

الفصل الثالث والعشرون: قناعٌ يتشقق تحت شمس "الشمال"
في العيادة، كان الدكتور علي يراقب صمت شمس الطويل، ثم
سألها بهدوء:

"شمس، كلما تعمقنا، رأينا كيف كان يغلف حصاره بغلاف
"النخبوية". لكن، هل تذكرين موقفاً واحداً.. لحظةً واحدة سقط فيها
قناع المتقف، وبرز فيها وجه "الجهل المرضي"؟ لحظة شعرتِ
فيها أن عقل هذا الرجل ليس سوى زنانة ضيقة؟"
أخذت شمس نفساً عميقاً، وارتسمت على وجهها ملامح شعورٍ
قديم بالخزي:

"نعم يا دكتور.. أتذكر ذلك الصيف حين عاد أبناء عمي من إسبانيا كما هي عاداتهم كل سنة. كان ابن عمي 'ياسين' الأقرب إلى قلبي؛ كان يكبرني بسنوات، ويراني دائماً تلك الأخت الصغرى التي يفتخر بذكائها. كان ياسين مثقفاً حقيقياً، متفتحاً، يعيش في برشلونة ويحمل معه دائماً عبق الكتب التي لم تصل إلينا بعد." استرسلت شمس في الحكاية:

"في صباح ذلك اليوم، خرجتُ مع ياسين إلى 'مكتبة الأعمدة' في شارع محمد الخامس. كنا نضحك، نناقش آخر ترجمات 'ميلان كونديرا'، وكان ياسين يحمل عني الأكياس الثقيلة بمودة الأخ الكبير. وفجأة.. رأيتُه. كان يقف على الرصيف المقابل، عيناه كانتا تشتعلان بنارٍ لم أرها من قبل، نارٍ لا علاقة لها بالحب، بل هي نار 'التملك' الجريح."

صمتت شمس، وابتلعت ريقها بصعوبة:

"لم ينتظر حتى نبتعد. عبر الطريق كالمجنون، واقتحم مساحتنا وصوته يرتجف بحدة: (من هذا الذي تضحكين معه في وسط الشارع وتتبادلين معه الكتب؟ أهذه هي الثقافة التي تدعينها؟). تجمدتُ في مكاني من الإحراج، حاولتُ تقديمه لياسين بهدوء: (هذا ابن عمي ياسين، لقد جاء للتو من إسبانيا..). لكنه قاطعني بصرخة مكتومة وهو يقترب من وجه ياسين: (ابن عمك أو غيره، لا يحق لرجل أن يلمس أكياسك أو يمشي بظلك وأنا موجود! أنت مشاعٌ إذن؟)."

أكملت شمس وهي تصف المشهد الدرامي:

"ياسين لم يصمت. دفعني خلف ظهره بلطف وواجهه بصرامة الرجل الواصلق: (اسمع يا هذا، شمس ابنة عمي وهي في مقام أختي، وأسلوبك هذا لا يدل إلا على مرضٍ ونقصٍ في رجولتك. من أنت لتتحدث معها بهذه اللهجة السوقية؟). تحول الموقف إلى شجارٍ لفظي عنيف، وكان 'هو' يصرخ بكلماتٍ خالية من أي أدب، متهماً إياي بـ 'الاستهتار'. انتهى الموقف بأن غادر هو المكان بغضبٍ عارم، ملقياً بكلمةٍ جارحة خلفه: (اذهبي مع ابن عمك الإسباني، يبدو أنك تفضلين التحرر الزائد على السترا!)."

سألها الدكتور علي:

"وكيف تصرفت أنت حينها؟ هل لحقت به؟"

"لا، بقيت مع ياسين الذي كان ينظر إليّ بأسى شديد. قضيتُ الساعتين التاليتين وأنا أعتذر لياسين، أرجوه أن يصفح عما بدر منه، وأبرر له غضبه بأنه 'حبٌّ مفرطٌ' و'غيرة شرقية'. لكن ياسين أمسك يدي بحزم وقال لي جملة هزتني: (يا شمس، هذا ليس حباً.. هذا سجن. هذا الشخص نرجسي، مريض بالسيطرة، وعقله أضيق من أن يستوعب امرأة بحجم عقلك. إنه لا يليق بك، وسينتهي بك الأمر حطاماً إذا لم تتبعدي الآن. الرجل الذي يهينك أمام عائلتك لا يحترمك، ومن لا يحترمك لا يحبك)."

تنهدت شمس بمرارة:

"في تلك اللحظة، عرفتُ أن ياسين على حق. شعرتُ بتخلفه،
بجهله بمفهوم الثقة، بفقره الأخلاقي. لكن، هل تعرف ماذا فعلتُ يا
دكتور؟ بمجرد أن عدتُ للمنزل، اتصلتُ به وأنا أبكي، أستسمحه
وأرجوه ألا يتركني، وأعدته بأنني لن أخرج مع ابن عمي مرة
أخرى! لقد كنتُ مستعدة لتكذيب عينيّ وتكذيب نصيحة ياسين
الصادقة، فقط لكي لا أفقد ذلك 'الوهم' الذي سكن قلبي."
نظر إليها الدكتور علي بأسى وقال:

"هنا تكمن المأساة يا شمس.. لقد اخترتِ 'الجلاد' على 'الأخ'،
واخترتِ 'الزنزانة' على 'الحرية'، لأنك كنتِ قد بدأتِ تفقدين
بوصلة الحقيقة. هذا الموقف كان 'إنذاراً' إلهياً، لكنك أطفأتِ
صفارات الإنذار بيديك."

الفصل الرابع والعشرون: جُدرانُ العُزلةِ الصَّمَاءِ

في العيادة، كان الدكتور علي يدوّن ملاحظة واحدة بخط عريض:
«تسميم الينابيع». نظر إلى شمس التي كانت تعبث بطرف
وشاحها بقلق، وسألها:

"بعد تلك الحادثة مع ياسين، كيف استغل هو 'شعورك بالذنب'
ليتم عزلك عن عالمك الصغير؟ وكيف تحول ابن عمك، الذي
كان سنداً، إلى رمز لـ 'الخطر' في قاموسه المسموم؟"

أطلقت شمس زفرة حارة، وكأنها تزيح صخرة عن صدرها:

"لقد كان بارعاً في 'الاستثمار في الألم' يا دكتور. لم يمرر
الموقف ببساطة، بل حوله إلى 'مأتم عاطفي'. ظل لأيام يرفض
لقائي، وحين وافق أخيراً، قال لي بنبرة باردة كالموت: (لقد أهنت

رجولتي أمام غريب، جعلت ابن عمك 'المتفرنج' يتناول عليّ
وأنت صامته. هل هذا هو الحب الذي تدعين؟. جعلني أشعر أنني
المجرمة، وأن دفاع ياسين عني كان 'اعتداءً' عليه."
استرسلت شمس، وعيناها تلمعان بدموع الندم:

"بدأ في عملية 'غسل دماغ' ممنهجة تجاه ياسين وكل ما يمثله.
كان يقول لي: (أمثال ياسين هم من أفسدوا عقول النساء؛ يأتون
من أوروبا بقيم لا تشبهنا، ليحولوا الطاهرات إلى سلع للمناقشة في
الشوارع. هل تريد أن تكوني مثله؟ تائهة بلا هوية؟). وهكذا،
صار اسم ياسين في بيتنا يثير رعباً. كلما ذكره إخوتي أو أمي،
كنتُ أنسحبُ بصمت، لأنني كنتُ أخشى أن يكتشف 'هو' أنني ما
زلتُ أحمل له الود، فيعاقبني بالهجر مجدداً."
سألها الدكتور علي:

"وكيف تصرفت أنت حينها؟ هل لحقت به؟"

"لا، بقيتُ مع ياسين الذي كان ينظر إليّ بأسى شديد. قضيتُ
الساعتين التاليتين وأنا أعتذر لياسين، أرجوه أن يصفح عما بدر
منه، وأبرر له غضبه بأنه 'حبٌّ مفرط' و'غيرة شرقية'. لكن ياسين
أمسك يدي بحزم وقال لي جملة هزتني: (يا شمس، هذا ليس حباً..
هذا سجن. هذا الشخص نرجسي، مريض بالسيطرة، وعقله أضيق
من أن يستوعب امرأة بحجم عقلك. إنه لا يليق بك، وسينتهي بك

الأمر حطاماً إذا لم تتبعتني الآن. الرجل الذي يهينك أمام عائلتك لا يحترمك، ومن لا يحترمك لا يحبك".

تنهدت شمس بمرارة:

"في تلك اللحظة، عرفتُ أن ياسين على حق. شعرتُ بتخلفه، بجهله بمفهوم الثقة، بفقره الأخلاقي. لكن، هل تعرف ماذا فعلتُ يا دكتور؟ بمجرد أن عدتُ للمنزل، اتصلتُ به وأنا أبكي، أستسمحه وأرجوه ألا يتركني، وأعدته بأنني لن أخرج مع ابن عمي مرة أخرى! لقد كنتُ مستعدة لتكذيب عيني وتكذيب نصيحة ياسين الصادقة، فقط لكي لا أفقد ذلك 'الوهم' الذي سكن قلبي."

نظر إليها الدكتور علي بأسى وقال:

"هنا تكمن المأساة يا شمس.. لقد اخترتِ 'الجلاد' على 'الأخ'، واخترتِ 'الزنزانة' على 'الحرية'، لأنك كنتِ قد بدأتِ تفقدين بوصلة الحقيقة. هذا الموقف كان 'إنذاراً' إلهياً، لكنك أطفأتِ صفارات الإنذار بيديك."

سألها علي بمرارة:

"وهل وصل به الأمر إلى منعك من حضور التجمعات العائلية التي قد يتواجد فيها ياسين أو غيره؟"

"أكثر من ذلك يا دكتور! لقد حول المناسبات العائلية إلى 'حقول ألغام'. إذا أقيم حفل عشاء، كان يختلق مشكلة قبلها بساعة، يبكي أو يغضب أو يدعي المرض، ليجبرني على البقاء بجانبه أو البقاء

في غرفتي أبكي. كان يقول لي: (المرأة التي تحب، تكتفي برجلها عن قبيلتها. هل تحتاجين لمديح أبناء عمك لتشعري بكيانك؟). ومع الوقت، بدأتُ أنسحبُ فعلياً. اعتذرتُ عن حفلات الزفاف، عن أعياد الميلاد، حتى عن جلسات الشاي البسيطة مع أمي وأحلام. توقف صوت شمس، ثم أكملت بانكسار:

"لقد نجح في تصوير عائلتي كـ 'قطيع من الجهلة' الذين لا يفهمون عمق علاقتنا، وصور ياسين كـ 'شيطانٍ متمرّد' يريد إفسادي. وبسبب ضعفي، صرّت أرى أهلي بعينيه هو. كنتُ أجلس وسطهم بجسدي، لكن روعي كانت أسيرةً عنده، أترقبُ رسالةً منه تمنحني 'صك الغفران' لأنني تجرأتُ وجلستُ مع إخوتي عشر دقائق إضافية."

«(Isolation Control) الدكتور علي: «التحكم بالعزلة (

ثم رفع نظره إليها:

"شمس، أنتِ كنتِ تقلعين جذوركِ بيدكِ لتزرعيها في أرضٍ مالحة. أخبريني، في تلك الفترة، هل بدأتِ 'أحلام' تلاحظ هذا الانسحاب؟ وهل بدأتِ المواجهة بينها وبينه تأخذ شكلاً أكثر حدة؟" أجابت شمس:

"أحلام كانت تصرخ في وجهي: (أنتِ تموتين يا شمس! لقد سلبكِ ضحكك، سلبكِ أهلك، والآن يسلبكِ نفسك!). لكنني كنتُ أرد عليها بجملةٍ لقنني إياها هو: (أنتِ تغارين من استقرار العاطفي

يا أحلام، لأنك لم تجدي رجلاً يحبك ويغار عليكِ مثله). هل تتخيل
يا دكتور؟ لقد استخدمتُ سلاحه لأطعن أغلى صديقة عندي. لقد
جعلني 'ناقصة' الوفاء، و'فاسدة' المنطق، لكي لا يبقى لي أحدٌ
سواه."

الفصل الخامس والعشرون: رحلة الاستبصار.. والارتطام الأخير

في العيادة، كان الدكتور علي ينظر إلى شمس التي بدت كأنها
بدأت تستعيد "جسدها"؛ لم تعد تلك الكتلة الهشة. سألتها:

"شمس، أخبريني عن عودة ياسين للظهور.. كيف استطاع أن
يخترق ذلك الحصار الذي فرضه هو حولك؟ وكيف بدأت فكرة
"التمرد" تنمو كنباشٍ صغير في زوايا عقلك؟"

تنهدت شمس، وظهرت في عينيها لمعة تحدٍ قديمة:

"لقد كان ياسين صبوراً بشكلٍ مذهل يا دكتور. لم يقطع علاقته بي
رغم إهانتني له. بدأ يرسل لي رسائل يومية، ليس فيها عتاب، بل
فيها صور لمناظر طبيعية، ومقاطع من موسيقى هادئة، وجمل

قصيرة تقول: (أنتِ تستحقين الضوء يا شمس). وبمساعدة أحلام،
وضعا خطة لانتزاعي من تلك 'الشرنقة' المسمومة."

استرسلت شمس:

"جاء إليّ ياسين وأحلام، وأصرّا على أن أخرج معهما في رحلة
ليومين إلى مدينة 'الشاون'. في البداية، شعرتُ بالرعب؛ كنتُ
أتخيل غضبه، صراخه، وتهديداته بالرحيل. لكن ياسين نظر في
عيني وقال بحزم: (شمس، أغلقي هاتفك لمدة 48 ساعة فقط. إذا
كنتِ بعد ذلك تريدان العودة إلى سجنك، فلن أمنعكِ. لكن امنحي
روحكِ يومين لتتنفس دون 'إذن' من أحد)."

صمتت شمس، ثم أكملت بابتسامة حزينة:

"فعلتها.. أغلقتُ الهاتف. كانت الرحلة بمثابة 'غسيل للروح'.
هناك، بين الجبال الزرقاء، بدأتُ أرى بوضوح. بدأتُ أضحك من
قلبي، بدأتُ أكل بشهية، وبدأ ياسين يشرح لي بذكاءٍ علمي ما
أعيشه. كان يقول لي: (شمس، هذا ليس حباً، هذا 'اضطراب
الشخصية النرجسية'. هو لا يراكِ إنساناً، بل يراكِ 'مصدراً' يغذي
غروره. هو يشعر بالنقص، لذا يحتاج لتحطيم امرأة ناجحة مثلكِ
لكي يشعر بالتفوق)."

سألها الدكتور علي:

"وكيف كانت العودة يا شمس؟ كيف كانت الصدمة التي جعلت
القناع يسقط تماماً؟"

"عدتُ وفتحْتُ هاتفي..". ارتعشت يد شمس وهي تمسك كأس الشاي، "توقعتُ مئات الرسائل من الغضب، لكنني وجدتُ ما هو أسوأ. وجدتُ تسجيلاً صوتياً أرسله لي 'بالخطأ'—أو هكذا ظننت—كان يتحدث فيه مع شخصٍ آخر، يسخر مني بمرارة، يقول له: (لقد كسرتُ كبرياءها تماماً، أصبحت كالخاتم في إصبعي، لم تعد تلك المثقفة المتعالية، بل مجرد امرأة 'ناقصة' لا تستطيع التنفس بدوني). والأنكى، أنه كان يواعد امرأة أخرى في غيابي، ويخبرها أنني مجرد 'مريضة نفسية' يسترُ عليها بدافع الشفقة!"

انهمرت دموع شمس، لكنها كانت دموع غضب لا دموع ضعف: "في تلك اللحظة، انهار كل شيء. الصدمة لم تكن في خيانتها، بل في 'حقيقته'. أدركتُ أنه لم يحبني يوماً، بل كان يمارس ساديته النفسية عليّ. كان يبتزني بلقب 'فاسدة' وهو غارق في فساده الأخلاقي. كان يصفني بالـ 'ناقصة' ليوارى نقصه الداخلي وفشله في أن يكون رجلاً حقيقياً. لقد كان يرى فيّ 'ضحية مثالية' لأنني كنتُ أملك كل ما يفتقر إليه: النبيل، الموهبة، والصدق العائلي."

دون الدكتور علي بصرامة: «لحظة الاستيقاظ الصدمي

ثم قال: .»(Traumatic Awakening)

"شمس.. تلك الصدمة كانت 'القوة' التي فكت الأغلال. النرجسي لا يرتدع بالمنطق، بل يرتدع عندما تفقد الضحية 'قيمتها' بالنسبة

له، أو عندما تنكشف لعبته. أخبريني، كيف واجهته في تلك اللحظة؟"

أجابت شمس بقوة لم يعدها علي فيها من قبل:

"لم أواجهه يا دكتور.. بل فعلتُ ما لم يتوقعه. حظرتُ رقمه من حياتي تماماً، وعدتُ إلى حضن أمي وياسين وأحلام. شعرتُ وكأنني كنتُ تحت تأثير 'سحرٍ أسود' واستيقظتُ منه. لقد أدركتُ أن سنتين من عمري ذهبت في 'وهم'، وأن الخطر الحقيقي لم يكن في كلامه عني، بل في تصديقي لكلامه."

الفصل السادس والعشرون: سكراتُ التملك.. وبزوغُ اليقين

بعد تلك الرحلة، خيم صمتٌ غريب على حياة شمس الضحى، صمتٌ لم يكن مرعباً بل كان أشبه بهدوء ما بعد العاصفة. لكن "هو" لم يكن ليرحل بهدوء؛ فالمفترس لا يتقبل ضياع فريسته بسهولة. بدأ يمارس ما يسمى في علم النفس بـ "الشفط"

محاوياً سحبها مجدداً إلى مداره بكل الوسائل الممكنة.

في العيادة، كان الدكتور علي ينظر بتقدير إلى تماسك شمس. سألتها:

"شمس، كيف كانت محاولاته الأخيرة لاستعادتك؟ وكيف استطعتِ الصمود أمام 'فيضان' التوسل والتهديد الذي لا بد وأنه انهمر عليكِ؟"

ابتسمت شمس ابتسامةً فيها الكثير من القوة والقليل من السخرية:
"لقد استخدم كل الأقنعة التي يملكها يا دكتور. في اليوم الأول، أرسل رسائل يقطر منها الندم، يدعي فيها أنه انهار تماماً، وأنه اكتشف أنه 'لا شيء' بدوني، وأن حياته توقفت. انتقل من دور 'السيد المطاع' إلى دور 'الطفل الضائع'. كان يقول: (أنا مريض يا شمس، فسوتي كانت بسبب حبي المرضي لك، اعذريني وعودي لتنقذيني من نفسي)."

صمتت شمس قليلاً، ثم أكملت:

"وعندما لم يجد مني رداً، تحول القناع فجأة إلى 'الوجه القبيح'. بدأ يهددني بصورنا، وبكلامي الذي بحث له به في لحظات الضعف. أرسل لي رسالة صوتية كانت مليئة بالحق: (تظنين أن ياسين وأحلام سيحسونك؟ سأجعل الجميع يعرفون من هي شمس 'الفاصلة' حقيقةً، سأكشف عوراتك الفكرية والنفسية أمام الجامعة كلها)."

سألها علي بحزم:

"وهل خفتِ يا شمس؟ هل اهتزت تلك الأرض الصلبة التي وقفتِ عليها في الشاون؟"

"الأول مرة يا دكتور، شعرتُ بالاشمئزاز لا بالخوف. نظرتُ إلى رسائله وكأنني أنظر إلى حشرةٍ تحاول الهروب من الضوء. بفضل ياسين ودعمه، لم أعد أرى تهديده كصاعقة، بل كـ 'نباح' يائس. ياسين قال لي: (النرجسي جبان يا شمس، هو يعيش على خوفك، فإذا مات الخوف داخلِك، مات هو). وبالفعل، أرسلتُ له رسالة واحدة وأخيرة، رسالة صاغها عقلي الذي استعاد عافيته: (كل ما تملكه من 'أسرار' هو وسامٌ نبيلٍ على صدري لأنني صدقتك، وعازٌّ أبدي على جبينك لأنك خنت. اذهب وافضح نفسك بفضحي، فالعالم سيرى امرأةً أحببت بصدق، ورجلاً لم يملك من الرجولة إلا صوتاً مرتفعاً وتهديداتٍ رخيصة. لقد متُّ في قلبي، والموتى لا يُهددون الأحياء)."

تنهدت شمس بعمق، وكأنها تزيح حملاً عن صدرها:

"لقد جن جنونه يا دكتور. حاول الاتصال بعائلي، لكن إخوتي كانوا له بالمرصاد. ياسين واجهه قانونياً وبشكلٍ صارم، وهدده بملاحقته في كل مكان إذا تجرأ على ذكر اسمي. وحين أدرك أن 'مصدر غذائه' قد انقطع تماماً، وأنني لم أعد أتأثر بدموعه أو بوعيده، انسحب إلى جحره باحثاً عن فريسةٍ أخرى يمارس عليها عقده."

وضع الدكتور علي قلمه، ونظر إليها بإعجاب:

"شمس.. أنتِ الآن لم تشفي فقط، بل أنتِ 'وُلدتِ'. لقد كسرتِ حلقة 'الابتزاز العاطفي' التي يسجن فيها النرجسيون ضحاياهم لسنوات."

أخبريني، كيف تشعرين الآن وأنتِ تجلسين هنا، وقد انجلت تلك الغمامة تماماً؟"

أجابت شمس وعيناها تلمعان ببريق اليقين:

"أشعر بأنني 'شمس الضحى' حقاً. لستُ ناقصة، ولستُ فاسدة كما أرادني أن أصدق. أنا امرأة قوية، اختبرت الظلام فعرفت قيمة الضوء. لقد استعدتُ مكتبي، ورواياتي، وعلاقتي بأمي وأحلامي. والأهم من ذلك، استعدتُ حقي في أن أقول 'لا' دون خوف. لقد كانت سنتان من الضياع، لكنني خرجتُ منهما بدرسٍ لن تنساه روعي أبداً: أن الحب الذي يسلبك نفسك، ليس حباً، بل هو انتحارٌ بطيء."

الفصل السابع والعشرون: تَرْمِيمُ الْمَرَايَا الْمُهَشَّمَةِ

في العيادة، لم تكن شمس تجلس اليوم كضحية، بل كجندي عائد من معركة ضارية، جروحه بدأت تندمل لكن ندوبها لا تزال تحكي القصة. سألتها الدكتور علي وهو يراقب هدوء ملامحها:

"شمس، لقد انقطع الخيط المسموم، لكن الفراغ الذي تركه قد يكون مؤلماً في البداية. كيف بدأتِ رحلة العودة إلى مقاعد الجامعة؟ وكيف كانت مواجهة نظرات الزملاء الذين كان هو يحاول تشويه صورتك أمامهم؟"

تنهدت شمس، وعدلت وضعيتها جلوسها بوقار:

"في البداية، كان الخروج من البيت يشبه المشي على زجاج مكسور. كنتُ أشعر أن كلمة 'ناقصة' أو 'فاسدة' مكتوبة على جبيني ليقراها الجميع. كنتُ أظن أن كل همسة بين طالبين هي حديث عني. لكن ياسين كان يرافقني كل صباح إلى باب الجامعة، وكان يقول لي: (ارفعي رأسك يا شمس، من يجب أن يخجل هو من خان ونكث، لا من أحب وصدق)."

استرسلت شمس في وصف تلك الأيام الصعبة:

"المفاجأة كانت في مدرج الجامعة. في أول ندوة حضرتها بعد العودة، حاولتُ الجلوس في المقاعد الخلفية لأختفي. لكن أستاذي، الذي كان يحترم موهبتي، ناداني باسمي أمام الجميع: (آنسة شمس الضحى، افتقدنا مداخلتكِ الذكية، المنصة تشتاق إليك). شعرتُ برعشة في جسدي، نظرتُ إلى أحلام التي كانت تجلس بجانبني وتغمز لي بعينها مشجعة. وقفتُ، ولأول مرة منذ سنتين، لم أفكر في 'رأيه'، ولم أخف من 'غيرته المرضية'. تكلمتُ، وصوتي الذي كان مخنوقاً، انطلق قوياً كأنه شلالٌ تحرر من سدٍّ منيع."

قاطعها علي بسؤال جوهري:

"وهل حاول رفاقه أو 'أدواته' في الجامعة مضايقتك؟"

"نعم، حاول البعض رمي كلمات مبطنة، لكنني واجهتها ببرودٍ لم أكن أعرفه في نفسي. أدركتُ أن قوته عليّ كانت تستمد طاقتها من 'خوفي'. وحين مات الخوف، صار هو وكلماته مجرد ضجيج

بلا معنى. بدأت أستعيد كتبي، بدأت أكتبُ مقالات نقدية في مجلة الجامعة، وكنتُ أوقعها باسمي العريض: 'شمس الضحى إدريس'، تكريماً لوالدي الذي أرادني دائماً شمس الشتاء الدافئة لا شمس الصيف الحارقة."

دون الدكتور علي بابتسامة: «استعادة الملكية العامة للذات ثم سألها:» (Reclaiming Public Self)

"وماذا عن الكتابة؟ لقد كان يحاول إقناعك أنك بلا موهبة.. كيف كانت لحظة العودة إلى الورق والقلم؟"

أغمضت شمس عينيها، وابتسامة حقيقية ارتسمت على شفتيها:
"كانت ولادة متعثرة يا دكتور. في الليلة الأولى، لم أستطع كتابة كلمة واحدة. كنتُ أسمع صوته يسخر من كل استعارة أكتبها. لكنني تذكرتُ ما قاله لي ياسين عن 'النجسية'؛ أنهم يكرهون نجاحنا لأنه يذكرهم بفشلهم. فأخذتُ القلم وكتبْتُ في أول الصفحة: (هذه الكلمات ليست لك، هي لي، لتطهيري من دنس وعودك). ومنذ تلك الليلة، لم يتوقف القلم. بدأتُ أحول كل ألم، وكل لحظة انكسار، وكل إهانة وصفني فيها بالـ 'ناقصة'، إلى فصول في رواية. لم أكن أكتبُ لأنتقم منه، بل كنتُ أكتبُ لأستعيد 'شمس' التي سرقها مني."

نظر إليها علي بعمق وقال:

"وهنا يكمن الفرق يا شمس.. هو استخدم اللغة ليقتل، وأنتِ استخدمتها لتحيي. أخبريني، هل بدأتِ تشعرين أن 'الستر' الحقيقي هو الصدق مع النفس، وليس الاختباء خلف رجل يخاف من ضيائك؟"

أجابت شمس بيقين:

"الستر الحقيقي يا دكتور هو أن تملك المرأة كرامتها كاملة غير 'منقوصة'. لقد كنتُ أظن أن بقائي معه ستر، فإذا به قبر. واليوم، وأنا أمشي في شوارع طنجة برأس مرفوع، أشعر أنني أكثر طهارة ونبلاً من أي وقت مضى. لقد غسلتُ روحي بدموع الحقيقة، وهذا أظهر وضوء قد تمر به امرأة."

الفصل الثامن والعشرون: ممراتُ الذاكرة.. وصرخةُ التحذير

عادت شمس الضحى إلى كلية الآداب، لكنها لم تعد تلك الفتاة التي تمشي مطأطئة الرأس، تحاول التخفي خلف وشاحها خوفاً من المصادفات. كانت تمشي وهي تستشعر ثقل الأرض تحت قدميها، وكأنها تعيد اكتشاف الممرات التي شهدت ذبولها وانكسارها. في ذلك اليوم، كان هواء طنجة محملاً برطوبة البحر، والغيوم الرمادية تداعب قمم الجبال المحيطة، تماماً كما كان الحال في أول يوم التقت فيه به.

في زاوية معتمة من المكتبة المركزية، بعيداً عن صخب الطلبة في الساحة، حيث يختلط غبار الكتب القديمة برائحة الرق الأثري، أبصرت شمس "نسخة" من نفسها القديمة. كانت فتاة تدعى "إيناس"، طالبة في ربيعها الأول بالجامعة، تجلس غارقة في صفحات كتاب "الوجود والعدم"، وبجانبيها رجلٌ لم ترَ شمس وجهه في البداية بسبب زاوية الإضاءة، لكنها عرفت جلسته.. عرفت الطريقة التي يميل بها برأسه ببطء، وتلك اليد التي تتحرك بإيماءات مدروسة لتوهم الضحية بأنه ينصت لروحها لا لكلماتها.

شعرت شمس ببرودة مفاجئة تسري في أوصالها، وكأن يد صقيع مست الذاكرة. بدأت دقات قلبها تتسارع، ليس خوفاً منه، فقد مات الخوف في "الشاون"، بل كان خوفاً على تلك الفتاة التي كانت تبتسم ببراعة الساذجين، تماماً كما فعلت شمس قبل سنتين. رأت إيناس وهي تنظر إليه بإعجاب مفرط، وكأنها وجدت أخيراً "المعلم" الذي سيشرح لها لغز الحياة.

انتظرت شمس بصبرٍ خلف أحد رفوف الكتب الضخمة حتى غادر هو المكان، يمشي بزهو الطاووس الذي اصطاد فريسة جديدة. عندما اختفى أثره، اقتربت شمس ببطء وهدوء. كانت إيناس لا تزال "سكرانة" بكلماته، تعبت بقلمها وتتنظر إلى الفراغ بابتسامة حالمة.

"هل تسمحين لي بالجلوس قليلاً؟" سألت شمس بنبرة هادئة، رخيمة، تحمل وقار التجربة.

نظرت إليها إيناس بدهشة، وسرعان ما تعرفت عليها: "أنتِ.. أنتِ شمس الضحى؟ الأسطورة التي يتحدث عنها الجميع في مدرج (أ)؟"

لقد قال لي 'هو' إنك كنتِ موهبة فذة، لكنك لم تحتلمي ضغط الشهرة والأدب، وأصبتِ بانهييار عصبي جعلكِ تبتعدين عن الجميع.. وعنه."

ابتسمت شمس ابتسامة هادئة، لكنها كانت مليئة بالشفقة المريرة، وجلست بمواجهتها تماماً: "إيناس، اسمعيني بقلبكِ لا بأذنيكِ. الكلمات التي قالها لكِ الآن، عن 'توهج روحكِ الفريد' وعن 'عزلتكِ الجميلة التي لا يشبهها أحد'، وعن أن صديقاتكِ في السكن تافهات ولا يرتقين لمستوى فكركِ الوجودي.. هل قالها؟"

شحب وجه إيناس فجأة، وسقط القلم من يدها ليرتطم بالأرض في صمت المكتبة الثقيل: "كيف عرفتِ؟ هل كنتِ تتجسسين علينا خلف الرفوف؟"

"لا يا صغيرتي، لم أكن بحاجة للتجسس. أنا فقط قرأت هذا النص 'المسرحي' قبلكِ بسنتين. هو لا يغير الحوار، هو يغير الضحايا فقط. سيبدأ الآن بطلب كلمة سر هاتفكِ بدافع 'الخوف عليكِ' من غدر الزملاء، وسينتهي به المطاف وهو يخبركِ أمام المرأة أنكِ 'ناقصة' عقلٍ ودين وجمال، وأن وجوده بجانبكِ هو مجرد 'صدقة' منه على روحكِ المريضة. سيفعل ذلك لكي لا تجرئي يوماً على تركه."

أمسكت شمس يد إيناس المرتجفة: "هو 'ثقب أسود' يا إيناس، يمتص ضياء الآخرين ليعوض عتمته الداخلية. انظري إليّ جيداً.. لقد كنتُ مثلكِ، والآن أنا أحاول ترميم ما حطمه ببراعة السجان المحترف. لا تنتظري حتى تصبحي حطاماً لكي تصدقي. اهربي

الآن، فالثقافة التي تبدأ بعزلك عن العالم، هي مجرد سجن مغلف بجلد الكتب."

تركت شمس الفتاة في ذهولها وصدمتها، ومضت بخطوات ثابتة نحو المخرج. شعرت بصداع يفتك برأسها نتيجة استحضار تلك الذكرى، لكن بقلبٍ يشعر للمرة الأولى بأنه أدى ديناً قديماً للحياة، وبأن "شمس الضحى" لم تكتفِ بالنجاة بنفسها، بل بدأت تمد يدها لتتقذ الغارقات في نفس الوهم.

الفصل التاسع والعشرون: مذكرات "أحلام" .. الوفاء في زمن الغياب

في غرفتها الصغيرة التي كانت تشهد سابقاً على ضحكات "شمس" وجلسات التخطيط للمستقبل، كانت أحلام تجلس والدموع تببل دفترها قديماً، غلافه من القماش المخملي العتيق. هذا الدفتر لم يكن مخصصاً لليوميات العادية، بل كان "رسائل لم تُرسل" إلى

شمس، كتبتها أحلام لكي لا تفقد عقلها وهي ترى أعز صديقة لها تتلاشى كالدخان.

فتحت أحلام الدفتر، وبدأت تعيد قراءة صفحاتها التي كتبت في أصعب لحظات تلك العلاقة السامة:

"الليلة الثالثة بعد المئة من صمت شمس.."

"يا وجع قلبي عليك يا رفيقة العمر. اليوم مررتُ بجانب بيتها، تعمدت المشي ببطء لعلي ألمح طيفها. رأيتها من بعيد تقف في الشرفة، لم تكن 'شمسي' التي أعرفها. كانت تبدو كشبح باهت لامرأة كانت يوماً تملأ المكان ضجيجاً وحياءً. لاحظتُ أنها لم تعد تضع ذلك القرط الفضي الذي أهديتها إياه في نجاحها، ولا ترفع شعرها بتلك الطريقة المتمردة التي كانت تثير جنون المعجبين. لقد 'هذبتها' كما يدعي، وأنا أقول: لقد قتل فيها كل ما هو حي. أريد أن أقتحم ذلك البيت، أن أصرخ في وجهه وأخبره أن طنجة كلها تعرف زيفه، لكنني أخشى عليها منه. أخشى أن يفرغ غضبه فيها إذا واجهته. سأنتظر.. فالصداقة الحقيقية هي انتظار بزوغ الصباح في أشد الليالي عتمة."

قلبت أحلام الصفحة لتصل إلى كتابة مؤرخة في "خريف العام الثاني":

"شمس لم تعد ترد على رسائلي، بل قامت بحظري من كل مكان. أخبرتني والدتها، 'لالة فطيم'، وهي تشهق بالبكاء، أن شمس

تقضي ساعات طوال في غرفتها صامتة، تنظر إلى السقف
بجمود، وأنها ترفض الخروج حتى مع إخوتها الذين كانوا يوماً
عالمها. لقد نجح ذلك 'الغراب' في عزلها تماماً. صنع لها عالماً
وهمياً هو إلهه وقاضيه ومشرعه الوحيد. يا شمس، عودي..
الكراسي في المقاهي الثقافية تسأل عنك، والمدرج 'ج' يفتقد
صوتك، والورق الذي جف حبره ينتظرك لتكتبي مأساة هذا
الغياب. ياسين عاد من إسبانيا اليوم، وعيناه تفيضان غضباً
صامتاً. هو الوحيد الذي يملك الجرأة الآن ليقف في وجه هذا
الوحش المتخفي في ثياب الأدباء. سنستعيدك يا شمس، حتى لو
اضطررنا لتهديم ذلك البرج العاجي الذي بناه حولك حجراً حجراً
على رأسه."

أغلقت أحلام الدفتر، وضمته إلى صدرها بقوة. كانت تتذكر كيف
كانت شمس تسخر من تحذيراتها في البداية، وكيف كانت تصف
غيرته بأنها "حبٌ أسطوري".

"ليتكِ تقرئين هذا يا شمس،" همست أحلام وهي تمسح دموعها،
"ليتكِ تعرفين أن ذكائك لم يخنك، بل قلبك الكبير هو من فُخخ
بالخدعة."

كانت مذكرات أحلام هي الشاهد الصامت على عملية "الاغتيال
النفسي" التي تعرضت لها شمس. لم تكن مجرد كلمات، بل كانت
صك براءة لشمس الضحى؛ فمن يملك صديقة كأحلام، لا يمكن
أن يكون "ناقصاً" أو "فاسداً" كما ادعى هو. كانت أحلام هي

"البوصلة" التي لم تنكسر، والخيط الرفيع الذي ظل يربط شمس بالواقع حتى في أحلك لحظات غيبوبتها العاطفية.

في تلك الليلة، قررت أحلام أن تأخذ هذا الدفتر وتعطيه للدكتور علي، ليكون جزءاً من "ملف الشفاء"، لتعرف شمس كم كانت محبوبة، وكم كان هناك من يحرس غيابها بوفاءٍ لم يلوته زيف الكلمات.

الفصل الثلاثون: حارسَةُ الضياء.. في محرابِ الطمانينة

في صباح يومٍ شتوي، كانت قاعة الانتظار في عيادة الدكتور علي هادئة، لا يقطع صمتها سوى صوت المطر الذي ينقر على الزجاج برتابة. فُتح الباب بحدّة، ودخلت فتاة قصيرة القامة، ملامحها مغسولة بالتعب، وعيناها اللتان كانتا يوماً تشعان شقاوةً، غرقتا في بحرٍ من القلق المالح. كانت هذه هي "أحلام".

وقفت أمام السكرتيرة بصوتٍ متهدج: "أريد رؤية الدكتور علي.. أرجوك، الأمر لا يتعلق بي، بل بروحٍ تضيع."

عندما سمح لها الدكتور علي بالدخول، لم تنتظر أحلام أن يجلس أو يبدأ الحديث. بقيت واقفة في منتصف الغرفة، تعصر حقيبتها بين يديها، ثم انفجرت بالبكاء، شهقاتٍ مكتومة كانت تحبسها في صدرها لشهور.

"دكتور علي.. أنا أحلام، صديقة شمس الضحى.. أو ما تبقى منها." قالتها وهي تحاول مسح دموعها بكم معطفها. "أنا التي جئتُ بها إلى هنا، أنا التي وضعتُ عنوانك في حقيبتها وهددتها بخسارتي إن لم تأتِ. دكتور، أخبرني.. هل ستعود شمس؟ هل ستشرق مجدداً؟ لقد رأيتها تذبذب أمام عيني ولم أستطع فعل شيء. كنتُ أقف خلف زجاجٍ عازل للصوت، أراها تحترق ولا أستطيع إخماد النار."

نظر إليها الدكتور علي بنظرةٍ تملؤها الرحمة والتقدير. قام من مقعده بوقار، وسحب لها كرسيّاً مريحاً، ثم قدم لها منديلاً ورقياً وكوباً من الماء الدافئ. لم يتعامل معها كـ "مرافقة مريضة"، بل تعامل معها كـ "بطلّة" مجهولة في هذه الحكاية.

"اجلسي يا أحلام، وتنفسي بعمق"، قال علي بصوته الرخيم الذي يبعث السكينة في النفس. "أنتِ قمتِ بأعظم فعلٍ يمكن لصديق أن يفعله. لقد كنتِ اليد التي انتشلتها من القاع قبل أن يبتلعها الظلام تماماً."

جلست أحلام، وهي تنظر إليه بتوسل: "دكتور، أنا لا أعرف ماذا حدث بينهما في تلك الغرفة المغلقة.. لا أعرف ما هي الكلمات التي قالها لها لتصبح هكذا، هي لم تخبرني بشيء، كانت تدافع عنه بشراسة، لكنني كنتُ أشم رائحة الموت في صمتها. هل كسر لها يا دكتور؟ هل أهان كبرياءها؟"

هنا، التزم الدكتور علي بـ "أمانة المهنة" مع مزجها بـ "حنان الأب". لم يفش أسرار شمس، ولم يحك لأحلام عن تفاصيل "النقص" و"الخيانة" و"الابتزاز" التي روتها شمس في جلساتها، لكنه قرر أن يطبب على قلب أحلام بطريقة ذكية.

"أحلام، اسمعيني جيداً.. شمس الضحى الآن تخوض معركة 'ترميم'. هي في مرحلة تنظيف الجروح من الشوائب، وهذه المرحلة مؤلمة. ما تظنينه ذبولاً هو في الحقيقة 'سكون المحارب' قبل النهوض. شمس بخير، بل هي في طريقها لتكون أفضل مما كانت عليه قبل أن تلتقي به. هي تملك كنزاً لا يملكه الكثيرون، تملك صديقة مثلكِ حاربت العالم لتعيدها، وتملك عائلة لم تتخلَّ عنها."

ابتسم علي ابتسامة مطمئنة وأكمل: "أنتِ لم تكوني تعلمين حجم الخسارة في الداخل، وهذا طبيعي، لأن المتلاعبين يحبون بناء أسوارٍ من الكذب حول ضحاياهم. لكنني أعدك يا أحلام، أن الجوهرة التي ظننت أنها انكسرت، هي الآن تحت الصقل. شمس ستعود، ليس فقط

كصديقتك القديمة، بل كامرأة لن يستطيع ألف رجل مثل 'ذلك
الشخص' أن يهز شعرة من ثقتها مجدداً."

شعرت أحلام وكأن جبلاً من الثلج بدأت تذوب عن عاتقها. وضعت
يدها على صدرها وهي تتنفس الصعداء: "شكراً يا دكتور.. شكراً
لأنك لمست الجرح بيدك الرحيمة. كنتُ أخاف أن أكون قد تأخرت،
كنتُ أخاف أن تكون روحه السامة قد تغلغت في دمها لدرجة
اللاعودة."

"لا يوجد شيء اسمه 'لا عودة' لامرأة في قوة شمس،" أجابها علي
وهو يودعها عند الباب. "استمري في كونك 'الضوء' الذي
ينتظرها في الخارج، واتركي لي مهمة 'إشعال القنديل' في
الداخل. هي بحاجة لوفائك الآن أكثر من أي وقت مضى، دون
أسئلة، ودون عتاب."

خرجت أحلام من العيادة، ولم يعد المطر يشعرها بالبرد. كانت
تمشي في شوارع طنجة، ولأول مرة منذ سنتين، شعرت أن
"شمس الضحى" لم تغرب للأبد، بل هي فقط في "خسوف"
مؤقت، ستخرج منه أكثر ضياءً ونبلاً.

الفصل الحادي والثلاثون: رسالةٌ إلى مَنارةِ الرُّوحِ.. وتَصَالِحُ الجُدُور

في الجلسة التالية، كان الدكتور علي ينتظر شمس الضحى وقد وضع على مكتبه باقة صغيرة من زهر "الليلك" التي يحبها، وكان الجو العام للعبادة كان يهيبُ شمس لرحلة غوص عميقة في أبعاد زاوية في ذاكرتها.

بدت شمس اليوم هادئة بشكل غريب، هدوء يسبق البوح الكبير. نظر إليها علي وقال بنبرة دافئة:

— "شمس، لقد قطعنا شوطاً طويلاً في كشف قناعه، لكن اليوم أريد أن نكشف 'احصونك' أنت. نحن نعلم أن هذا الشخص استغل فراغاً تركه غياب الحاج إدريس. لقد صور لك أن حمايته هي امتداد لحماية والدك، بينما كانت في الحقيقة قضباناً لسجنك. أريدك الآن أن تكتبي رسالة لوالدك، أخبريه بكل شيء، وكأنك تعتذرين لتلك الطفلة المدللة التي ضيعت بوصلتها في الزحام."

صمتت شمس، وارتجفت يداها وهي تتسلم الورق والقلم. بدأت تكتب، والكلمات تخرج كأنها اعترافات مقدسة، ودموعها تسقط بصمت لتبلل الورق:

"أبي الحبيب.. يا سندي الذي غادرني قبل الأوان وتركتني في مهب الريح.."

لقد بحثتُ عنك في الرجل الخطأ يا أبي. ظننتُ أن غيرته المرضية هي 'هيبتك'، وأن تسلطه الذي خنق أنفاسي هو 'حمايتك'. لقد كنتُ ساذجة لدرجة أنني سمحتُ له أن يهدم البيت الذي بنيته في روعي لبنة لبنة، ذاك البيت الذي علمتني فيه أنني امرأة لا تُكسر، وأن كرامتي هي أظهر ما أملك.

أعتذر لك يا أبي، لأنني صدقته حين قال إن دلالك لي جعلني 'هشة' وغير صالحة للحياة. الحقيقة يا أبي أن دلالك هو الذي أنقذني في النهاية؛ لولاه لما عرفتُ طعم الكرامة، ولما استطعتُ المقارنة بين حبك الصافي الذي لا يطلب مقابلاً، وحبه المسموم الذي كان يطلب 'روحي' ثمناً لوجوده بجانبني.

لقد جعلني أشعر أنني 'ناقصة' بعدك، ليوهمني أنه هو 'الكمال' الذي سيكملني. لكنني اليوم، ومن مكتب الدكتور علي، أقف أمام ذكراك وأنا أقول لك بصوت عالٍ: لقد انتهى الكابوس. أنا أعود إليك الآن يا أبي.. أعود ابنتك القوية، 'شمس الضحى' التي لا تغيب. أعتذر لأنني خفتُ منه ولم أخف على نفسي، ولأنني منحتُه مقاماً في قلبي لم يكن يستحقه سوى العظماء مثلك."

توقفت شمس عن الكتابة، وأسندت رأسها إلى الكرسي وهي تتنفس بعمق، وكأن صخرة عظيمة قد أزيحت عن صدرها. نظر الدكتور علي إلى الرسالة، ثم نظر إليها بإعجاب:

— "هذا هو 'الاستبصار' الحقيقي يا شمس. النرجسي يعيش على فكرة 'اليتيم العاطفي' للضحية، هو يحاول أن يكون 'الإله والأب والزوج والصديق' ليقطع كل الجذور. بكتابتك لهذه الرسالة، أنتِ أعدتِ وصل جذورك بأرضك الصلبة. لقد اكتشفتِ أن 'الستر' الذي كان يعدك به هو في الحقيقة 'قبر' لذكائك، وأن الطهارة التي كان يبتزك بها هي 'تلوث' لأفكارك."

قالت شمس بصوتٍ ثابت:

— "دكتور، أشعر للمرة الأولى منذ سنتين أنني لا أحتاج لغفرانه، ولا أحتاج لتبرير غيابي له. لقد كنتُ أعتذر له عن أشياء لم أفعلها، واليوم أنا أعتذر لنفسي ولأبي عن كل ثانية ضاعت وأنا تحت سيطرته. لقد كان يقول لي إنني بلا قيمة بدونه، واليوم أرى أن قيمتي كانت تضيع فقط لأنني كنتُ معه!"

ابتسم علي وقال:

— "الآن يا شمس، انتهت رحلتنا العلاجية في هذه الغرفة. لقد تغلبتِ على أقوى سلاح يملكه: 'سلاح الذنب'. أنتِ الآن تملكين القلم، وتملكين الحكاية، والعالم—وخاصة ياسين وأحلام—ينتظرون أن يسمعوا صوتك الذي حاول خنقه."

خرجت شمس من العيادة، ولم تعد ترى شوارع طنجة رمادية. كانت الشمس تشرق في كبد السماء، وشعرت برغبة عارمة في الكتابة، ليس لتفريغ الألم هذه المرة، بل لبناء صرحٍ جديدٍ من الكلمات لا يستطيع أحد هدمه.

الفصل الثاني والثلاثون: ميثاقُ النور.. وخُطَّةُ العُودَة

في الجلسة التي تلت رسالة الوداع، لم يكتفِ الدكتور علي بالدعم النفسي، بل وضع أمام شمس ورقة بيضاء رسم في منتصفها دائرة كتب فيها "شمس"، وحولها ثلاثة أسهم قوية. نظر إليها بجدية وتفاؤل وقال:

"شمس، الشفاء ليس حالة ذهنية فقط، بل هو 'سلوك يومي'. لقد قطعنا الخيوط غير المرئية التي كانت تربطك به، والآن سنبنى 'جهاز مناعة' يحميك من أي انتكاسة. سأسمي هذا (مخطط العبور)، وسيكون لكل من أحلام وياسين دور محدد فيه، بموافقتك طبعاً."

اعتدلت شمس في جلستها، ولأول مرة منذ زمن، ظهرت في عينيها رغبة حقيقية في "التنفيذ" وليس فقط "الاستماع".

"أنا مستعدة يا دكتور. ماذا علي أن أفعل؟"

بدأ علي يشرح المخطط بوضوح:

مَهْمَةٌ "العزلة المنتجة" (مسؤولية شمس):

"عليك تخصيص أربع ساعات يومياً للكتابة، لكن ليس عن الألم، بل عن 'شمس الضحى' التي كانت تحلم بباريس وبالمكتبات العالمية. أريد منك استعادة 'عقلك النقدي'. اقرئي ثلاثة كتب في الشهر، وقومي بتلخيصها ونقدها كما كنت تفعلين في سنتك الجامعية الأولى. استعيدي ملكية فكرك الذي حاول إقناعك بأنه 'ناقص'."

مَهْمَةٌ "الاندماج الاجتماعي" (مسؤولية أحلام):

"أحلام هي 'وزيرة خارجيتك'. لقد اتفقت معها على أن تأخذك ثلاث مرات أسبوعياً لمجالس طنجة الثقافية، للسينما، وللمقاهي التي كنت تخشين دخولها. دور أحلام هو أن تكون 'درعك' ضد

نظرات الفضول، وأن تذكرك دائماً بكيفية الضحك بصوت عالٍ
دون الشعور بالذنب."

مَهْمَةٌ "الأمان والمنطق" (مسؤولية ياسين):

"ياسين سيتولى الجانب القانوني والعملي. هو سيقوم بتغيير كل
أرقامك، وتأمين حساباتك الإلكترونية، وسيكون هو 'الحاجز' الذي
يمنع وصول أي تهديد أو رسالة من ذلك الشخص إليك. كما
سيقوم ياسين بمناقشتك فيما تكتبين بصفته 'النذ الفكري' الذي كنت
تبحثين عنه، ليعيد إليك الثقة بأن رأيك مسموع ومحترم."

أحست شمس بقشعريرة تسري في جسدها، ليس خوفاً، بل
استشعاراً لعظمة الوفاء المحيط بها. قالت بصوت متهدج:

"دكتور، كيف سأرد لهم كل هذا؟ لقد خذلتهم لعامين، والآن هم
يتسابقون لترميمي."

رد علي بحنان:

"رُدُّ الجميل يكون بنجاحك يا شمس. النرجسي أرادك جثة هامة،
ورُدُّك عليه هو أن تكوني 'أكثر حيوية' من أي وقت مضى. أريد
منك ألا تعتذري لأحلام أو ياسين، بل اشكريهم بابتسامته وبإنجاز."
في تلك الأيام، بدأت الخطة تدخل حيز التنفيذ. كانت أحلام تأتي كل
صباح، تفتح الستائر في غرفة شمس بقوة وتصرخ بضحكتها
المعهودة: "هيا يا كسولة، القهوة تنتظرنا في 'الحافة'، والبحر اليوم
أزرق لدرجة تغري بالكتابة!"

أما ياسين، فقد كان يجلس معها في المساء، يحضر لها كتباً نادرة من إسبانيا، ويتحداها في نقاشات فلسفية عميقة. كان يتعمد الاختلاف معها في الرأي ليرى رد فعلها، وحين كانت تدافع عن فكرتها بقوة، كان بيتسم ويقول: "هذه هي ابنة الحاج إدريس التي أعرفها.. العقل الذي لا يقبل الانحناء".

بدأت شمس تلاحظ تغييراً في جسدها أيضاً؛ عادت الشهية للأكل، واختفت الهالات السوداء تحت عينيها، وصار صوتها يحمل رنيناً واثقاً. كانت تمضي ساعات الفجر في الكتابة، تحول كل تلك الدروس القاسية إلى نص أدبي رفيع، نص لا يهاجم شخصاً، بل يفكك "ظاهرة" السيطرة النفسية.

في إحدى الليالي، بينما كانت تكتب، رنّ هاتفها (الرقم الجديد الذي لا يعرفه إلا المقربون). كانت رسالة من أحلام: "نمي جيداً يا شمس، غداً يوم كبير.. غداً سنرسل المسودة الأولى للناشر".

استندت شمس إلى كرسيها، ونظرت إلى النجوم من نافذتها، وشعرت لأول مرة بأنها ليست "ناقصة"، بل هي "مكتملة" بجراحها وندوبها، وبأن ميثاق النور الذي وضعه علي، وحرصته أحلام، وسنده ياسين، قد أتى أكمله.

الفصل الثالث والثلاثون: وداعُ المِراةِ القَديمةِ .. وفلسفَةُ الغُفرانِ
دخلت شمس الضحى عيادة الدكتور علي للمرة الأخيرة، لم تكن
تحمل معها هذه المرة "أكياس الألم" أو ملامح الانكسار. كانت
ترتدي قميصاً أبيضاً ناصعاً، وشعرها مرفوعاً للأعلى بتمرّدٍ أنيق،
وفي يدها مغلفٌ ضخم يضم مسودة روايتها التي أتمتها.
نظر إليها الدكتور علي، ولم يجد حاجة لفتح مفكرته. لقد كانت
ملامحها هي "التقرير الختامي" لنجاح الرحلة.

"شمس.. أرى في عينيك اليوم شيئاً لم أراه من قبل. إنه ليس مجرد ارتياح، بل هو 'تحرر'. أخبريني، ونحن على أعتاب الجلسة الأخيرة، ما هو شعورك تجاه 'الماضي' الآن؟ وتجاه ذلك الشخص الذي احتلّ سنتين من عمرك؟"

صمتت شمس قليلاً، ثم وضعت مسودة الرواية على المكتب وقالت بصوتٍ رخيم وثابت:

"دكتور علي، جنثُ إليك وأنا أبحث عن 'نسيان'، لكنني اكتشفتُ أن النسيان هو خدعة الضعفاء. اليوم، أنا لا أريد نسيانه، بل أريد 'تذكره' بوضوح كدرسٍ قاسٍ جعلني أدرك قيمتي. لقد سألتني ذات مرة عن الغفران.. واليوم أملك الإجابة."

قاطعها علي باهتمام:

"وهل غفرت له يا شمس؟"

"لقد غفرتُ لنفسي يا دكتور، وهذا هو الأصعب. غفرتُ لـ 'شمس' التي كانت ساذجة، والتي صدقت أنها ناقصة، والتي سمحت له بانتزاعها من حضن عائلتها. أما هو.. فأنا لا أحمل له حقداً ولا غفراناً. هو بالنسبة لي الآن مجرد 'كائن مجهري' رأيتُه تحت مجهر الحقيقة؛ عرفتُ حجمه الحقيقي فلم يعد يثير فيّ سوى الشفقة. الغفران له يعني أنه لا يزال مهماً بما يكفي لأبذل جهداً في مسامحته، وهو أقل من ذلك بكثير."

ابتسم علي، وأحسّ بنشوة النجاح المهني:

"هذا هو 'النضج النفسي' في أبهى صورهِ. النرجسي يموت عندما يتحول في عين ضحيته إلى 'لا شيء'. وماذا عن فكرة 'الستر' و'الطهارة' التي كان يبتزك بها؟"
ضحكت شمس ضحكة خفيفة صافية:

"لقد اكتشفتُ أنني كنتُ 'مستورة' بعقلي ونبلي دائماً، وهو الذي كان 'عارياً' من كل فضيلة. طهارة المرأة يا دكتور ليست في صمتها عن الظلم، بل في شجاعتها على قول 'لا' في وجه الجلاد. هذه الرواية التي بين يديك، هي 'وضوئي' الأخير. لقد غسلتُ فيها كل الشوائب التي حاول إلصاقها بي."

قام الدكتور علي من مكانه، ومد يده لمصافحتها بتقدير كبير:
"شمس الضحى.. أنتِ اليوم لا تخرجين من عيادتي كمريضة تعافت، بل تخرجين كملهمة. لقد طبقتِ مخطط العبور ببراعة، وأحلام وياسين ينتظرونك في الخارج ليس ليكملوا ترميمك، بل ليحتفلوا بك. ملفك سيُغلق اليوم، لكن قصتك ستبدأ الآن."
وقفت شمس، وفي تلك اللحظة، شعرت وكأن روح والدها، الحاج إدريس، ترفرف في المكان بابتسامة رضا.

"شكراً يا دكتور.. لأنك لم تمنحني سمكة، بل علمتني كيف أصطاد الحقيقة في بحرٍ من الأكاذيب. شكراً لأنك كنتِ الصدى الذي أعاد لي صوتي."

خرجت شمس من باب العيادة، ولم تلتفت وراءها. في ممر البناية، كانت أحلام تقف وهي تمسك باقعة ورد، وياسين يستند إلى الحائط بابتسامته الواثقة. عندما رأوها، صرخت أحلام بفرح: "لقد تأخرت! الناشر اتصل بي ثلاث مرات، إنه يتوقع انفجاراً أدبياً!"

احتضنت شمس صديقتها بقوة، ثم نظرت إلى ياسين وقالت: "هيا بنا.. الشمس لا تنتظر أحداً."

مشت شمس الضحى بينهما، وكانت خطواتها على رصيف شارع محمد الخامس بطنجة توقع لحناً جديداً؛ لحن امرأة عرفت أن الانكسار ليس نهاية القصة، بل هو أحياناً "المخاض" الضروري لولادة الذات الحقيقية.

الفصل الرابع والثلاثون: مقام الضيَاء.. وانكسار الظل الأخير
كانت قاعة فندق "المنزه" التاريخي بطنجة تعج بالنخبة الثقافية، والصحفيين، والقراء الذين جاؤوا لاستكشاف سر هذه الرواية التي أحدثت ضجة قبل صدورها. العنوان كان مكتوباً بخط ذهبي عريض على ملصق ضخمة: "خسوف الذات: رحلة شمس بين العتمة والضياء".

خلف الستار، كانت شمس الضحى تقف بجانب أحلام. كانت ترتدي قفطاناً مغربياً بلون الأخضر الزيتوني، مطرزاً بخيوط

الحرير الذهبي، وشعرها مسدلٌ بعفوية مدروسة. لم تكن خائفة؛ بل كانت تشعر بسلام داخلي يشبه هدوء البحر في الفجر.

همست لها أحلام وهي تضغط على يدها: "لقد وصل يا شمس.. إنه يجلس في الصف الأخير، يظن أن أحداً لن يلحظه."

ابتسمت شمس بهدوء: "دعيه يشاهد يا أحلام. اليوم ليس يوم انتقام، بل يوم 'بيان'. اليوم سيرى ما حاول قتله وهو يولد من جديد."

صعدت شمس إلى المنصة وسط تصفيق حار هز جدران القاعة. جلس بجانبها الناشر والدكتور علي الذي حضر كضيف شرف، وياسين الذي كان يراقبها بعينين تلمعان بالفخر. بدأت شمس حديثها، ولم يكن صوتها يرتجف:

"هذه الرواية ليست محض خيال، وليست صرخة وجع. إنها تشريحٌ لكل يدٍ حاولت إطفاء شمعة، ولكل صوتٍ حاول إقناع امرأة بأنها 'ناقصة' لتستمر في العيش تحت ظله. كتبت هذه الفصول بمداد الكرامة التي حاول البعض تدنيسها باسم 'الستر' و'الطهارة'. أهدي هذا العمل لكل امرأة تخشى أن تقول 'لا'، ولأبي الذي علمني أن الشمس لا تستأنن أحداً لتشرق."

فتحت شمس باب المداخلات. وفجأة، وقف هو من الصف الأخير. كان يبدو شاحباً، وقد فقد ذلك البريق الزائف الذي كان يحيط به.

حاول استرجاع سلطته القديمة عبر "التفلسف"، فقال بنبرة حاول جعلها واثقة:

"ألا ترين يا آنسة شمس أن الأدب الذي يقوم على تصفية الحسابات الشخصية هو أدب 'ناقص' يفتقر للموضوعية؟ وهل تظنين أن القارئ سيصدق دراما 'الضحية' التي ترسمينها؟" ساد صمتٌ ثقيلٌ في القاعة. التفتت إليه شمس، ونظرت في عينيه مباشرة، ولأول مرة، لم تشعر بتلك الرعدة القديمة. قالت ببرودٍ أفحمه:

"الموضوعية يا سيدي هي أن يوضع المشروط على الجرح ليُطهر، لا ليُخفى. والأدب الناقص هو ذلك الذي يختبئ خلف الشعارات ليبرر القبح النفسي. أما القارئ، فهو لا يصدقني لأنني ضحية، بل يصدقني لأنني 'ناجية'. الفرق بيني وبينك، أنني حولتُ حطامي إلى عمارة أدبية، بينما لا تزال أنت تبحث في أنقاض الآخرين عما يرمم نقصك."

انفجرت القاعة بالتصفيق، بينما انسحب هو من الباب الخلفي مطأطأ الرأس، مطروداً ليس من المكان فحسب، بل من تاريخ شمس الضحى ومن ذاكرة الوسط الثقافي الذي لم يعد يرى فيه سوى "المسخ" الذي كشفت الرواية ملامحه.

في نهاية الحفل، وبينما كانت شمس توقع النسخ، اقتربت منها فتاة صغيرة وقالت لها: "شكراً يا شمس، لقد علمتني روايتك أن طهارتي في شجاعتي، وليست في صمتي."

نظرت شمس إلى الدكتور علي الذي أوما لها برأسه كأنه يقول: "انتهت المهمة". ثم نظرت إلى أحلام وياسين، وأدركت أن هذه هي عائلتها الحقيقية؛ أولئك الذين يحبون ضوءها ولا يخشونها.

خرجت شمس الضحى إلى شرفة الفندق المطلة على البحر. تنفست هواء طنجة المالح، وشعرت أن روح الحاج إدريس تبتسم لها من وراء الأفق. لم تعد "شمس" التي كانت تابعة لأحد، بل صارت هي المركز، هي الضياء، وهي الحكاية التي لن تنتهي بانتهاء الورق.

لقد غادرت شمس الضحى القاعة، ليس كأديبة مشهورة فحسب، بل كإنسانة تصالحت مع جروحها فصارت ندوبها أوسمة نبيل. لقد أغلقت زنزانة الماضي ورمت المفتاح في قاع المحيط، ومشت نحو مستقبلها بخطوات تهمس للأرض: "أنا كافية.. أنا مكتملة.. أنا شمس الضحى."

خاتمة الناجية: كلمة المؤلفة

"عندما وضعتُ النقطة الأخيرة في حكاية 'شمس الضحى'، لم أشعر بانتهاء الرواية، بل شعرتُ ببدء حياةٍ جديدة لكل امرأة قرأت فصولها واستشعرت ثقل قيودها.

إن هذه الرحلة التي خضناها معاً بين أزقة طنجة ودهاليز النفس البشرية، لم تكن تهدف لرجم 'الجلاد' بقدر ما كانت تهدف لترميم 'الضحية'. لقد أردتُ أن أقول من خلال صمت شمس، ثم صرختها، أن أعظم سجن يمكن أن تعيشه المرأة ليس الذي يحيط بجسدها، بل ذاك الذي يُبنى داخل عقلها بكلماتٍ مسمومة تدّعي الحب، وتتستر بالدين، وتتلطى خلف الثقافة.

لقد تعلمنا مع شمس أن 'الستر' الحقيقي هو أن تكوني في مأمن من الإهانة، وأن 'الطهارة' هي نقاء الضمير لا صمت الخوف، وأن 'الكمال' ليس في إيجاد من يكمل نقصنا، بل في إدراك أننا وُلدنا كاملين، وأن أي حب يطلب منا قص أجنحتنا لكي يسعنا قفصه، هو حبٌّ لا يستحق عناء التحليق.

إلى كل 'شمس' لا تزال تقبع في عتمة اليقين الموهوم:

لا تخشي الكسر، فمن خلال الشقوق ينفذ الضوء. ولا تخشي أن يُقال عنك 'ناقصة'، فالبدر لا يكتمل إلا بعد أن يمر بمراحل النقص، وفي كل مرحلة هو جميلٌ ومقدس.

تنتهي الحكاية هنا على الورق، لكنها تبدأ في الواقع كلما اختارت امرأة أن تحب نفسها أولاً، وكلما أدركت أن كرامتها هي 'محرابها' الذي لا يجوز لأحدٍ تدنيسه.

لقد أشرقت الشمس.. فهل تجرؤون على النظر إلى الضياء؟"

